

ميرنا المهدي

قضية عنب الثعلب

رواية

تحقيقات نوح الألفي



قضية عنب الثعلب

تحقيقات نوح الألفي

ميرنا المهدي



تحقيقات نوح الألفي





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

المهدي، ميرنا.
قضية عنب الثعلب تحقيقات نوح الألفي (٣) رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك 9789778727326
١ - القصص العربية.
ا - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٠٦٥٨ / ٢٠٢٣

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١
تم تجهيز هذه النسخة بواسطة: عمرو «3MR»

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

روايات ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرمة

دليل جدتي لقتل الأوغاد

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لوز مر - تحقيقات نوح الألفي ٢

قضية عنب الثعلب - تحقيقات نوح الألفي ٣

إهداء

إلى أمي التي تحملت قراءة ترهات المسودات الأولى من هذا العمل.

وإلى أختي التي تحملت ترهاتي أنا شخصيا في أثناء كتابته.

تمهيد

لعلك تعرفني من قبل، وإن كان هذا تعارفنا الأول فدعني أقدِّم إليك نفسي في ثلاث نقاط:

- أُدعى نوح الألفي.
- أنا ضابط في المباحث الجنائية في منطقة قصر النيل.
- أنا أرى أرواح الموتى!

١

تمارس أسرة دليلة تلك العادة الأرستقراطية العجيبة بعد كل غداء.

تجلس دليلة وليلو ووالدتهما يسرا في غرفة معيشة فيلتهن بالمعادي، بينما تعد لهن الخادمة الشاي المنكه بالفاكهة في طقم الفناجين الخزفية المزركشة بالوردات الزاهية ذات الحواف المذهبة.

قبل أن يوضع الشاي أمامهن، تكون السيدة يسرا قد أعدت شاشة التلفزيون الضخمة التي تتوسط الغرفة ذات الطابع الفرنسي المترف وربطتها بهاتفها المحمول لتعرض لنا لوحة فنية، ثم تطلب منا تأملها لعشر دقائق متواصلة من دون أن ينطق أحدنا بكلمة.

حدقت دليلة بحماس مفرط في اللوحة المعروضة على الشاشة، بينما تساءلت: ما الغرض من ضياع الوقت هذا؟

بالطبع لن أطرح على السيدة يسرا هذا السؤال، فهي فنانة تشكيلية واللوحات والمنحوتات وكل هذه الأشياء الدخيلة على ثقافتي مرتبطة بكينونتها. مجرد الاعتراض على هذا التمرين اليومي قد تحسبه إهانة لها.

تعاملت مع تلك العادة العبثية بوصفها ضريبة القيمة المضافة المفروضة عليَّ لتناول الطعام في بيت عائلة خطيبتي، واضطررت إلى التحديق كالأحمق في اللوحة وأنا أحتسي شايي السادة.



كانت اللوحة الزيتية المعروضة علينا لغرفة قصر فخم لكنه مظلم، وتغلب على تفاصيله الألوان الغامقة؛ حوائط داكنة، سجاد برتقالي باهت ولا يوجد في اللوحة سوى شخصيتين: عجوز يرتدي ثوبًا أسود عتيقا وعيناه تصرخان فزعًا جالسًا على الأرض يحتضن جثة شاب ينزف بغزارة.

بعد التدقيق، أدركت أن ملامح الشاب الميت تكاد تطابق ملامح العجوز المذعور، فيما عدا الشيب وعلامات الشيخوخة الواضحة بينهما.

تنهدت السيدة يسرا وهي ترتشف الشاي بنكهة البرتقال بعدما مرت الدقائق العشر، ثم قالت بهدوء لا يناسب دموية اختيارها الفني:

ها يا ولاد، دي لوحة مين؟

أجابتها ليلو التي أنهت شايها في رشفتين متعجلتين: - معلش يا مامي، أنا لازم أنزل دلوقت عشان أقابل....

- لما نخلص!

- مش كل يوم نقعد القعدة دي و...

- كل الرغي ده من وقتك!

زفرت ليلو المراهقة وعقدت ذراعيها مرددة بضجر:

- القيصر الروسي إيفان الرهيب وابنه إيفان، اللي رسمها إيليا ريبين في القرن التاسع عشر.

- إيه اللي شايفاه في اللوحة؟



ألقت على اللوحة نظرة خاطفة ثم قالت باقتضاب:

قيصر روسيا حزين على موت ابنه ووريث عرشه اللي اتقتل في نص القرن السادس عشر.

- وإنتِ يا دليلة؟

اندفعت دليلة بحماس، وراحت تثرثر عن تاريخ اللوحة، وقصة حياة رسامها، والحقبة السياسية والاجتماعية الموازية لها بتفاصيل مملة جعلت صوتها يتحول إلى مجرد ضوضاء بيضاء في مؤخرة رأسي .... شردتُ في اللوحة، فروح المحقق بداخلي لم تبال بحركة فرشاة الرسام ولا دلالات ألوانه ولا رمزية أدواته. عقلي لم يكن منتبها إلى أنه يتأمل لوحة زيتية في الأساس، بل كان ينبهني إلى أنني أمام مسرح جريمة.

هذا العمل الفني الدامي أعمق من مجرد لوحة لأب مذعور يصرخ لمقتل ابنه الشاب!

هذه هي التفاصيل التي خاطبت فكري البوليسي: الشاب ينزف من رأسه بسبب ثقب صغير قد ينتج في زمننا الحالي عن طلقة رصاص، لكن الوقت الذي حدثت فيه واقعة القتل - القرن السادس عشر كما قالت ليلو - يسبق تاريخ اختراع مسدسات الرصاص بنحو ثلاثة قرون. تلك الإصابة، ومن دون أدنى شك، ليست ناتجة عن رصاصة!

تأملت اللوحة المعروضة جيدًا، فلمحت بالقرب من يد الابن المقتول الملطخة بالدماء، رمحا يشبه رماح مصارعة الثيران الإسبانية، وانتبهت إلى أن طرفه الحاد ينتهي ببقعة دم.



ها قد وجدنا سلاح الجريمة!

الأب دخل إلى الغرفة فوجد ابنه مصابًا بالرمح فعانقه وبكاه.

هذا ما استنتجته حتى لفتت انتباهي علامات الصراع الواضحة في كل ركن بالغرفة: الكرسي المنخفض المقلوب في الخلفية، وخداديته الملقاة أرضًا، وانعكاس الباب نصف المفتوح في المرآة المرسومة وراء الأب، والسجاجيد الناعمة المزحزحة عن مكانها بطريقة شديدة الواقعية وتدل على وجود عراك بين شخصين فوقها، عراك انتهى ببقعة كبيرة من الدم!

هنا أصيب الابن بالرمح ثم سقط مكانه. كدت أستقر على تلك النظرية، حتى أدركت أن الراوي الأفضل لأي جريمة قتل هو الدم.

تناثر الدماء في اللوحة كان في غاية الدقة، كأن الرسام شهد على جريمة القتل بنفسه قبل أن

ينقلها إلينا بتلك الواقعية المفصلة.

ختمت دليلة كلامها بعد أن ارتشفت ما بقي في فنجانها:

ودي الطريقة اللي الرسام سجل بيها لغز اغتيال ولي عهد القيصرية اللي دلوقتِ يعتبر لغز محير المؤرخين والساسة.

- ووقتها برضو كان لغز كبير يا دليلة، بدليل إن إيليا رسم اللوحة مبهمة، بدون ما يوضح القاتل.
قلت بثقة لا أظن أن حماتي تحبذها في:

بس القاتل واضح. الأب.



التفتت السيدة يسرا إليَّ وقالت:

- إزاي؟! ده حاضنه!

- حاضنه عشان ندمان.

أقصد إن إيفان الابن حاضن باباه، لو مركز هتلاقي إيده على كتفه كأنه بيطبطب عليه. ليه المقتول هيتعلق باللي قتله وهو بيموت؟!

- على حسب سبب قتل أبوه ليه. لو الابن عمل مصيبة، ممكن يحس إنه يستحق العقاب ده، عشان كده بيطلب من أبوه السماح وهو بياخد آخر أنفاسه. لو الأب قتل ابنه في ساعة شيطان وبعدها أدرك اللي عمله وبيطلب من ابنه السماح، فالابن حضنه وحط إيده على كتفه عشان يهديه ويقوله إنه مسامحه. أنا مش عارف شخصية إيفان الابن ولا إيفان الأب عشان أحكم.

استغرقت السيدة يسرا في النظر إلي ثم إلى اللوحة الكئيبة، وسألتني بهدوئها المربك:

- ليه مصمم على نظرية إن باباه هو اللي قتله؟

- عشان رذاذ الدم اللي على وش الأب.

- ده بسبب إنه حاضن ابنه وقريب من مكان إصابته اللي بينزف.

- لو كده كان هيبقى الدم اللي على وشه واخد شكل بقع مسطحة بسبب ضغط خدودهم على بعض، مش هيبقى قطرات شبه الرذاذ. ده غير إنه حاضن ابنه من ورا، عكس مكان الإصابة، وساند بدقنه على راسه مش على خده.



- يمكن البقع سببها إنه شال الرمح من جبينه ورماه على الأرض.

- لأ.

تركت فنجان الشاي على المائدة، ووقفت أمام شاشة التلفزيون، وأخذت أشرح لهن تفسيري لموقع الجريمة وأنا أشير إلى كل العناصر اللازمة والتفاصيل المهمة:

السجادة متنية ومتكرمشة هنا، ده موقع الصراع. لو حسبنا طول ذراع الأب مع طول الرمح هنقدر نتخيل إزاي قدر يقف قدامه ويصيبه في الجانب الأيسر من رأسه، وبعدها يشد الرمح في لحظتها فالابن يقع على وشه وينزف على الأرض، عشان كده النقطة دي فيها بقعة دم كبيرة. الأب رمي الرمح هنا، لف حواليه يستوعب الجريمة اللي ارتكبها وقعد عند ضهر ابنه وهو لسه بيطلع في الروح. عيط وشد جثته من فوق الأرض وحضنه وحط راسه على صدره. الرسام حب يشرحلنا بشكل غير مباشر إن إيفان الرهيب هو اللي قتل ابنه، وده التفسير المنطقي الوحيد اللي يخلي قيصر روسيا بجلالة قدره ما يقدرش يوصل لقاتل وريث عرشه زي ما بتقولوا، لأنه هو القاتل.

صفقت دليلة قائلة بفخر:

- صح يا نوح. برافو!

انحنيت أمامهن ممازحًا كأنني معبود الجماهير على المسرح، ثم عدت للجلوس.

تنهدت السيدة يسرا ثم قالت:

تحليل منطقي يا حضرة الظابط .

- مش قصدي والله أستعرض قدامكم شغل المباحث،بس...

- ولا يهمك، الطبع يغلب التطبع.

ابتسمت لي تلك الابتسامة السخيفة التي تحمل قليلا من الود وكثيرا من التعالي ثم أردفت:

- بس زي ما باقول للبنات دايمًا، كل يوم لازم تدي عشر دقايق على الأقل من وقتك للفن مهما كنت مشغول، لأن الفن بكل ألوانه مراية لأفكارنا. مهما كانت اللوحة مليانة ألوان هيفضل عقلنا معتبرها مساحة بيضا بيعكس عليها أفكاره ورؤيته لنفسه وللي حواليه. شكرًا لأنك شاركتنا الأفكار اللي جواك.

أرسلت إليَّ تلك النظرة والابتسامة المريبة، ثم احتستباقي شايها من دون مزيد من الكلام.

لا أدري إن كانت تقصد أن تشير بشكل غير مباشر إلى أن كل ما بداخلي هو التحقيق في جرائم القتل الدموية واتهام الشخوص، أم أنها أرادت أن تخبرني بأن تحليلي البوليسي لتلك اللوحة حوّل جلستهن الفنية الراقية إلى تحقيق في جريمة قتل مرت عليها قرابة خمسة قرون.

أتفهم انزعاج البعض من شكي الدائم في الناس، فالله يخلقنا كرماء نجود بثقتنا على الجميع، ونظل على تلك الفطرة حتى نحتك بباقي البشر فيعلمونا الحيطة والشك والتخوين، وما أكثر القتلة والمجرمين الذين احتككت بهم فعلموني الشك في ذاتي، وليس في الآخرين فحسب.زفرت ليلو ثم قالت بضجر :



- دليلة حللت تاريخ اللوحة، ونوح حل لغز مقتل إيفان الخامس، ينفع أمشي بقى؟

- بس مفيش تأخير. عشرة بالدقيقة تكوني قدامي.حاضر. عايزة شنطتك الحمرا!

مش فاهمة البنت اللي ورثاني بالحياة دي! اتفضلي قدامي.

نهضت ليلو مع السيدة يسرا لتستعير حقيبة يدها كالعادة، وبقيت أخيرًا بمفردي مع دليلة.

- هو الجو عندكم اللي دافي، ولا دي رومانسية اللحظة؟!

- هي المعادي دايمًا جوها دافي ورومانسي كده، إنت بس اللي مش مديها فرصة.

فرصة لإيه بالظبط؟

- لإنك تكتشفها، تجربها، تـ...

- بقالك يومين بتشعري في المعادي. الموضوع كده فيه ((إن)).

بصراحة آه. أنا مش عايزة أخرج من المعادي يا نوح. ما نتجوز هنا.

- وشقة أبويا؟

- نبيعها.



- يعني أبيع شقة جاردن سيتي أُم سقف عالي، عشان آجي المعادي أدور على ركنة !

- نوح! أنا بتكلم جد.

- لو على الجد، فإحنا ما اتفقناش على كده ساعة الخطوبة!

- تمام، بس أنا ما بقيتش متقبلة فكرة خروجي من المعادي.

هو إحنا هنهاجر لكندا!

- إنت ليه رافض حتى تفكر في الموضوع؟

عشان أنا معييش ميزانية أشتري شقة في المعادي، وفي نفس الوقت مش هابيع شقة أبويا، مش هابيع المكان الوحيد اللي لي فيه ذكريات عدلة.

- ما إحنا هنعمل ذكريات تانية حلوة كتير في بيتنا الجديد.

وهي الذكريات الحلوة ما ينفعش تتعمل غير في المعادي؟!

ضغطت على فكها ثم عقدت ذراعيها، وكانت على وشك أن تقول شيئًا، لكن حضور الخادمة منعها من ذلك، فرحنا نتابعها وهي تلملم فناجين الشاي الفارغة في صمت.

* * *

كانت تلك المشادة السخيفة تتمة مناسبة لأسبوعي المتوتر:

يوم السبت: مات روي، كلب جدي الراحل الذي تولينا تربيته من بعده.



يوم الأحد: توفيت كلبة جدتي الجريفون هي الأخرى، كأنها لم تقو على فراق رفيقها.

مساء الاثنين: تراكم الحزن على جدتي حتى انفجرت باكية، واستعادت تفاصيل رحيل جدي الذي تزامنت ذكراه مع تاريخ وفاة كلبه (حاولت أن أصبر جدتي وأقلل من وطأة شجنها لكنني فشلت فشلا ذريعا، فاستعنت بصديقاتها منذ أيام بعثة السوربون الجامعية. اجتمعت الصديقات لمواساتها في جلسة نسائية دافئة مليئة بالحنين إلى زمن مضى. انتهى مجلسهن بإجماعهن على السفر معا إلى شقة طنط فادية في محطة الرمل، عسى أن يقلل يود الإسكندرية من روح الرثاء التي تهيمن على فؤاد جدتي وتغلبها كلما لمحت أطباق طعام الكلبين الفقيدين أو طوقيهما).

صباح الثلاثاء: بعد سفر جدتي إلى الإسكندرية، تشاجر قطز مجددًا مع والديه لأنهما اعترضا على فكرة تقدمه لخطبة آسيا، بل إنهما رفضا التعرف عليها من الأساس (كانت مشاجراته معهما تدور دائما حول أنهما يريان أنابنهما الوحيد يستحق أن يكون الرجل الأول في حياة زوجته المستقبلية، لا أن يبدأ حياته مع أرملة لديها طفل، وتكبره بعامين. ما زاد الطين بلة هذه المرة هو استغلال والد قطز لمنصبه السابق لواءً في الشرطة، والولوج إلى ملف عائلة آسيا في المباحث ليكتشف أن خالتها ارتكبت أربع جرائم قتل عبقرية، ثم انتحرت بسم السيانيد حتى تورّث ثروة ضخمة لابنة أختها. كانت هذه المعلومة الشرارة التي أحرقت آخر سبل التفاهم بين قطز ووالديه، فاشتعلت نيران الغضب في بيت آل المحمدي، وانتهت مشادتهم العنيفة التي انتقد فيها قطر تعنت والديه وتحكمهما في اختياراته وقراراته المصيرية كافة، إلى تخييره بين العيش تحت سقف بيت أبيه وبين استمرار علاقته مع آسيا. كانت النتيجة



أن ترك لهما المنزل وانتقل للعيش معي، لأنه يرى أن علاقته بآسيا تستحق المخاطرة بكل شيء في سبيل سعادتهما الأبدية).

يوم الأربعاء: اتصلت آسيا بقطز لتنهي علاقتهما نهائيًا بعدما عرفت أن أباه بحث في ملف خالتها (فطر قلب قطز على علاقة لم تدم سوى أربعة أشهر أذابته عشقًا وهيامًا في كاتبة الجريمة السمراء التي أسرته بطول قامتها وبحة صوتها الكئيب).

فرغت الخادمة من لملمة الفناجين ثم سألتنا إن كنا سنشرب شيئًا آخر، وشكرناها فخرجت.

داعبت دليلة أطراف شعرها الجارسون بعد أن غزت تعبيرات السخط وجهها دقيق الملامح، فقلت آملا أن أغير أجواء النقاش السخيف:

- افردي بوزك طيب عشان مش هيبقى إنت وقطز علي!

داعبت دبلة خطوبتنا التي اتسعت حول إصبعها النحيفة بعدما فقدت كثيرًا من وزنها خلال الأسبوعين المنصرمين

ثم زفرت وقالت بنبرة جافة:

بقى أحسن؟

- أسوأ ما أظنش إن آسيا زعلانة عليه ربع زعله عليها.

- حط نفسك مكانها، إيه إحساسك لو عيلتي رفضاك ومستكتراني عليك؟

لو كان ده السبب الحقيقي.



- أومال إيه الحقيقة يا مكتشف الغامض والمثير؟

- إنها اتعرت قدامه. قطز عرفها في أصعب وقت في حياتها وشاف ضعفها وقلة حيلتها وقلعها قناع القوة اللي لابساه قدام كل الناس.

- مش حاسة إن آسيا من الشخصيات اللي ممكن تقطع علاقتها بواحد بتحبه لمجرد إنه عرفها على حقيقتها. الإنسان عايز حد يفهمه ويقبل عيوبه وضعفه.

- لأ، الإنسان عايز اللي يجاريه ويصدق كدبته، مش اللي يكشفهاله!

أيا كانت الأسباب، المهم دلوقت قطز. أنا شايفة إنك تلاقي حاجة تشغله بيها لأنه لو فضل فاضي هيبقى عنده وقت أكبر ينكد على نفسه. ما تسافروا!

- إحنا داخلين على راس السنة، مفيش أجازات دلوقت.

- كويس، أهو يشغل تفكيره بالشغل.

- ما تشغليش بالك إنتِ أنا هاعرف أخرجه من المودده. خلينا دلوقتِ نتكلم عن الحاجات اللي بتحبيها. لقيت طقم البورسلين المية خمسة وعشرين قطعة اللي كنتِ بتدوري عليه؟

لم أرَ في حياتي شخصًا يتحمس للحديث عن الصحون مثل دليلة؛ أشرق وجهها ، وأخرجت هاتفها لتريني صور ((صحوننا)) الجديدة، المائة وخمس وعشرين قطعة، قطعة، قطعة .



٢

ظلت تعبيرات إيفان الرهيب المذعورة تطاردني طيلة ورديتنا المملة في قسم قصر النيل.

لم تزد البلاغات الواردة إلينا على مشاجرات بعض المراهقين الملاعين، ونشال سرق محفظة سيدة عجوز، وآخر سرق موتوسيكل مطعم دجاج مقلي.

مع نهاية الوردية، وضعت سيناريو رائقًا وعالي المزاج أختتم به ذلك اليوم الكبيس: أنا وقطز نعرج على مطعم فلفلة في شارع طلعت حرب لشراء ثماني ساندويتشات كبيرة تتنوع بين الكفتة والدجاج والشاورما المصرية، ثم نشتري كيسَي رقائق بطاطس مقلية من الحجم العائلي ولترين من المياه الغازية نلتهمها في غرفة المعيشة أمام التلفزيون.

كانت خطة بسيطة يستحقها رجل أمضى تسع ساعات من التثاؤب على مكتبه، إلا أن قطز فياض الأمعاء اعترض على خطتي الرائقة، وصاح يقسم إنه لن يعود إلى الشقة قبل أن يأكل على الأقل ثلاثة كيلو من الكباب والريش الضاني من مطعم كبابجي الألفي. هنا حلت علينا اللعنة، فقد تصادف صياحه الأهوج مع مرور زميلنا الجلف صلاح أمام مكتبنا،

وفور أن سمع كلمة <كباب وريش>، التصق ببابنا كالحرباء.



كان صلاح يرتدي سترة جلدية تفوح منها رائحة الورنيش الأسود الذي يلمعها به ليخفي تقشيرها عند كتفيه وإبطيه. وقف يتثاءب ويتمطى فاردًا ذراعيه، فنفر شعر صدره من بين أزرار قميصه البنفسجي الرخيص الذي تنسلت خياطته من تكرار ارتدائه بلا رحمة. انتهى من تثاؤبه الأقرب إلى نهيم الفيل، ثم هذب شاربه الذي شذبه ليماثل شارب أمير كرارة في مسلسل ((كلبش)).

ابتسم صلاح ابتسامة واسعة كشفت عن أسنانه التي نخرها خشب شاي المقاهي المغشوش ودهنها بصفرته، ثم قال:

- العزومة دي عندي يا بهوات!

أكاد أجزم أن ((عزومة)) كلمة أعجمية دخيلة على قاموس أسلاف صلاح عبدة الجنيه، فطيلة أعوام خدمتنا في المباحث، لم أره يضع يده في جيبه إلا ليخرج منه هاتفه الصيني ليتحدث إلى إحدى عشيقاته الملعونات، حتى كدت أشك أنه يملك محفظة نقود من الأصل!

كنت على وشك أن أتملص من دعوته المشكوك في شرفها، لكن قطز سبقني قائلا:

- إحنا التلاتة هنخرج ونسيب القسم؟

ما نسيب القسم لوحده، هو يعني هيتوه! أنا خلاص حضرت، فسيبلي نفسك بقى، ها عشيك عشوة ملوكي.

* * *



كنت سأدع قطز يتحمل تبعات غبائه وأتركه يتعشى معه بمفرده، لكني لن أتخلى عن صديق عمري الذي يبدو أن انفصاله عن آسيا أفقده عقله إلى درجة أنه ورط نفسه في قبول دعوة عشاء مع صلاح!

كنت أسب قطز وصلاح وآسيا معا في سري بأحط الألفاظ، حتى ركبنا سيارتي التي تئن مفصلات بابها بأزيز مزعج من شدة برودة الشتاء، واتجهنا إلى مطعم كبابجي الألفي.

عادة أبقي نوافذ النوبيرا الحمراء مغلقة تجنبا لتسلل صقيع ديسمبر إلى قفاي، لكن رائحة عطر صلاح الرخيص ملأت السيارة، فلم أجد مفرًا من التخلي عن الدفء وفتح نافذتي،

والمخاطرة بشل عصبي السابع، حتى لا أفقد حاستي الشم والبصر من بشاعة رائحة عطره!

توقفت عند تقاطع شارعي نجيب الريحاني وعماد الدين لأسمح بمرور مجموعة من الشباب حاملي المانيكانات العارية الخاصة بمحال الملابس المنتشرة على جانبي الطريق.

استغل قطز فرصة وقوفنا أمام عمارة محل بافاريا لأدوات الإطفاء، التي زُخرفت جدرانها العتيقة بوجوه مصرية قديمة منحوتة بحرفية ورقي، فأشار إليها معلقا:

– تعرفوا إن من حوالي ميت سنة، الدور الأرضي من العمارة دي كان فيه قهوة للفنانين، أي حد نفسه يحط رجله في مجال المسرح كان بيقعد في القهوة دي، تعرفوا كمان بقى إن...



قاطعه صلاح:

- ما تقفلنا يا ابني كراسة الأول اللي إنت بالعها دي!

نظر إليه قطز شزرًا، وآثر أن يتأمل العمارات الراقية العتيقة التي غزاها قبح الحاضر، إلى أن صففت السيارة في جراج حارة علي الكسار.

سرنا على الجزء المبلط المخصص للمشاة في شارع عماد الدين بعد تقاطعه مع شارع محمد بك الألفي. هذا الجزء من الشارع - كسائر شوارع وسط البلد الرئيسية - لا يفرق بين خمول الليل ونشاط النهار.

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ومع ذلك أسمع صوت أم كلثوم يأتي من المقاهي عاليا بدفء يخيم على الشارع كله فيتداخل معه صياح الشباب ذوي الأصوات التي بحها المعسل ليغروني بالجلوس في مقاهيهم المنيرة قاسمين إن مقهاهم هو الأكثر تميزا في المنطقة كلها، على الرغم من أن كل مقاهي الشارع متشابهة حد التطابق.

أسمع نداء بائع بخور عربية ثقيلة الأريج، يرتدي جلبابًا أبيض، ويضع مسبحة خشبية طويلة حول عنقه، ويقاطع حديثي شباب يحملون تشكيلة من خواتم يجزمون أنها من الفضة الخالصة، ويلاحقني رسامون يعرضون على رسمي بالفحم والرصاص، بينما يتوسل إلي مصور ليلتقط لنا صورة بسعر بخس.

في تلك الفوضى السمعية، تتشتت رغبات أمعائي بين اشتهاء أصناف الحلوى التي تفوح رائحتها من متجر حلواني الفاليرو، وبين أريج مشاوي مطاعم الشاورما الشامية، وكباب وكفتة الألفي، ودقة كشري آل مؤمن وجحا.



هكذا حالي كلما ترجلت في منطقة وسط البلد، أشتهي كل شيء وعكسه.

مررنا بجوار مطعم الكشري الشهير، وما كدنا نتخطاه وصولا إلى كبابجي الألفي القريب منه، حتى جذبنا صلاح قائلا:

- ترابيزتي أهي.

أشار إلى طاولة من الصاج في منطقة الجلوس المخصصة لمطعم الكشري يجلس عليها مراهقان أرعنان، شعرهما مصبوغ بدرجة صفار المستردة.

نبح صلاح مناديًا:

- باسم! ارميلي العيال دي ونضف الترابيزة بفنيك! اقترب باسم النادل الثلاثيني صاحب البشرة الخمرية والعينين الخضراوين مرتديًا الزي الأبيض الرسمي للمطعم والمطرز على جيبه اسم آل مؤمن وجحا، محييا صلاح وهو يشير إلى المراهقين بالنهوض عن الطاولة:

- باشا مصر! صلاح باشا نورت بيتك يا باشا! ثانية يا باشا مصر والترابيزة تكون بتلمع.

نادى باسم بدوره على عامل مراهق معه قماشة برتقالية، لينظف الطاولة، بينما نهض المراهقان قبل أن ينهيا طعامهما وهما يسبان النادل البشوش.

سأل النادل:

- ترابيزة لتلات باشوات ولا نزود كراسي يا باشا مصر؟



- ما تزودش. أنزلنا بتلاتة كشري من الحجم الكبير. تلاتة كشري من بتوعي وكتر الورد، ها!

لم أتفاجأ، ففكرة أن يعزمنا صلاح على كباب وريش كانت من مستحيلات الدهر، لكن يبدو

أن قطز المسكين لم يتقبل الصدمة فقال:

- تلاتة كشري إيه؟! إنت مش قلت عازمنا على كباب وريش؟!

- أنا قلت عشاكم عندي، وأنا باتعشى هنا كل يوم.

- وأنا مالي! أنا عايز ريش!

ما تعمليش فيها حفيد الفنانة عفاف شعيب بقي! اقعد يا بيه وخليك ابن بلد. كتر اللحمة يجيب نقرس.

حاول قطز التملص منه، لكن صلاح جذب ذراعينا بقبضتيه الميري ووجهنا نحو الطاولة.

جلسنا على الكرسيين الباردين، ووضع أمامنا العامل المراهق دورقًا من الماء وثلاثة أكواب استانلس ومستلزمات الكشري، وتبعه باسم واضعًا أطباق الكشري الثلاثة ونصف ليمونة جعلته يعيدها فورًا إلى المطبخ تجنبًا لآثارها الغاشمة علي.

انشغل صلاح بمخاطبة النادل واتهامه بأن حجم طبق الكشري صار أصغر مما كان عليه بالأمس، فرأيت علامات الضيق على وجه النادل الذي لا بد أنه



يلعن في سره اليوم الذي التحق فيه بهذه الوظيفة التي جعلته يلتقي بصلاح يوميا!

انصرف النادل، بينما التفت صلاح إلينا وهو يقلب مكونات طبقه الغارقة في الصلصة الحارة قائلا:

إيه رأيكم في الأجواء الفخمة دي؟

أجبته قبل أن أبتلع الملعقة الأولى من طبقي:

غرضك إيه من معلقتين الكشري دول يا صلاح؟

غمزني غمزة موحية، ثم قال بابتسامة خبيثة:

- غرضي شريف يا لمونة.

هتنجز ولا نتكل على الله؟!

زفر صلاح، ثم شرب الماء من كوب لا يعلم غير الله كم فما غيره ارتشف منه ، ثم أخرج هاتفه بشاشته المليئة بالخدوش والكسور ليرينا صورة لطفل ضاحك عمره لا يتخطى العامين، شعره أحمر مائل إلى البرتقالي، ووجهه يكسوه النمش، يرتدي فانلة قطنية تكشف عن بنية شديدة النحافة، ويجلس داخل دلو دهانات أبيض فارغ، وبجواره على حصيرة ملونة يجلس رجل أصلع نحيف البنية، على الأرجح في مقتبل السبعينيات، يلبس نظارة طبية، ويرتدي جلبابا ملطخا بالدهان الأبيض، ويبتسم ابتسامة واسعة تكشف عن أسنان داكنة عجيبة الشكل زاد من وضوحها انعكاس فلاش الهاتف الذي صورهما تلك الصورة فوق سطح منزل خلفيته عامرة بقصاري الزرع الملونة.



تأملت الصورة ثم سألت صلاح وأنا أبعد قطط الشارع التي تدور حولنا انجذابا إلى رائحة الكشري

- مين العيل اللي شبه حزلقوم ده؟

- لؤي ابن رؤوف أخو ميدو جوز صباح.

- صباح مين؟

- صباح أختي يا جدع!

قاطعنا قطز معلقا:

- والمطلوب؟

- الواد أمه كانت مودياه الحضانة إمبارح، جه واحد بمكنة صيني من غير نمر خطفه منها وهرب.

- بعت إشارة للأقسام المجاورة والمديريات وعممت صوره على ال...

- لأ طبعا.

- أومال بتدور على الواد إزاي؟

- لميت كل العيال المتسولين اللي عندهم سوابق خطف في المنطقة وظبطتهم ظبطة ميري، وجبت العيال بتوع...

- مش هتبطل الشغل البلدي ده؟ ما تمشي في إجراءاتك عدل!



- يا ابني افهم! أنا لو عممت إن قريبي مخطوف والخبر اتسرب للصحافة، هيبة الداخلية هتتهز. الناس هتقول إذا كان قريب الرائد صلاح الشبكي بجلالة قدره اتخطف، إحنا عيالنا هيحصل فيهم إيه؟ ده وزير الداخلية يتشال فيها يا ابني!

علق قطز:

- قصره عشان أنا شايفك ريشة ضاني دلوقت، عايز إيه؟

- نتعاون يا بهوات. بقالكم يومين مقضينها تسليك خناقات عيال صغيرة، قلت أمدلكم إيدي وأديكم قضية عليها القيمة.

لمحت نظرة تأمل وتفكير في عيني قطز أعلم أنه سيتبعها بقرار غبي، فكان يجب أن أتدخل:

- أنا وقطز عندنا شغل كتير دلوقت.

- مش بمزاجك يا عريس

عقد ذراعيه القصيرتين ومط شفتيه وبدأ يهز رأسه وهو يقول كتلاميذ الكتاتيب:

- المادة ٢٤ من قانون الإجراءات الجنائية بتقول يجب على مأموري الضبط القضائي أن يقبلوا التبليغات والشكاوى التي ترد إليهم بشأن الجرائم. وآديني أهو باقدملكم بلاغ بخطف لؤي يا بهوات.

- إشطة! تعال بكرة القسم في ساعات عملنا الرسمية، وقدم بلاغ مكتوب وإحنا هناخد إجراءاتنا.



- هتمشيها ميري يا لمونة؟

هززت رأسي بلا مبالاة وأنا أنهي طبقي، ثم أشرت إلى النادل ليأتي بالحساب، فلبي النداء في ثوان قائلا لصلاح:

- الحساب تلاتين جنيه يا باشا مصر.

وقف صلاح يلملم هاتفه ومفاتيحه وعلبة سجائره من فوق الطاولة قائلا بعصبية مبالغ فيها:

- تلاتين جنيه إيه اللي بتكلمني فيها يا ابني! باشا مصر ما يفتحش محفظته لأقل من ألف جنيه. الحساب عند البهوات بتوع الكافيهات أم مينيمم تشارج.

ضحكت ساخرًا منه، وأخرجت محفظتي متذكرًا جملة أبي المفضلة:

<النطاعة ملهاش طبيب>!

* * *

بعد معاناة مع الحموضة بسبب دقة الكشري وصلصته الحارة، تمكنت بالكاد من النوم لسويعات ثم استيقظت على صوت إله المجروحين تامر عاشور.

تتبعت صوت الأغنية التي يسمعها قطز أربع مرات يوميًا على الأقل، فقابلتني في طريقي من غرفة نومي إلى الحمام - حيث الصوت - رائحة المنظفات القوية، ورأيت كراسي السفرة مقلوبة فوق السفرة، وسجاد الصالة ملفوفا كرغيف الشاورما السوري بجوار الحائط، والأرضية تلمع من فرط النظافة، فتحمست ظناً مني أن فكيهة أتت مبكرًا عن ميعادها لتنظف المنزل، وبدأت أتخيل أصناف الطعام التي ستطهوها لنا اليوم.

وصلت إلى الحمام فلم أجد فكيهة، بل وجدت قطز جاثيا على ركبتيه منشغلًا بفرك أرضية

الحمام وهو يغني بصوت حشرجة الأنين:

آه حلمنا بكل حاجة إلا ده ما حلمنا بيه عمرنا مرة ما قلنا إن شوقنا تروح عليه والحلم اللي بدايته باحبك تبقى نهايته وداع

- بتعمل إيه يا قطز؟!

انتبه لوجودي فالتفت إليَّ بعينين احمرتا من فرط البكاء الكئيب، وأوقف الأغنية في هاتفه وقال لاهنا:

- كنت قاعد زهقان قلت أنضف الزريبة اللي عايشين فيها دي.

- ما فكيهة جاية تنضف بكرة.

- اتصلت على التلفون الأرضي تأكد الميعاد بس أنا اديتها أجازة. مش معقول شحطين زينا مش عارفين ينضفوا الشقة بنفسهم.

نهض عن أرضية الحمام ثم حمل سلة الملابس المتسخة، وبدأ يضع سراويلي الداخلية في الغسالة.

حملت السلة عنه قائلا:

- مش لدرجة بوكسراتي يا قطز، سيب اللي بتعمله ده ويلا عشان نشوف شغلنا.



- لسه فاضل ساعتين على الوردية وهنروح نتنح في السقف من الفضا زي إمبارح.

- لأ يا سيدي، أنا قلبتها في دماغي وقررت إننا لازم نستجدع ونساعد صلاح الزفت يرجع قريبه المخطوف.

٣

فشل صلاح في أن يزودنا بمعلومة مفيدة نبدأ منها تحقيقنا في جريمة خطف لؤي. وحين أدرك خيبته، أشعل سيجارته الرخيصة وراح يروي لنا قصصا عن خلفية أنسابه ونحن في طريقنا إلى منزلهم، على أمل أن تفيدنا.

قص علينا أن الحاج رشيد - كبير العائلة - حين كان في الخامسة عشرة من عمره، سيطر عليه حلم تحقيق الثراء في المدينة كما روجت له أفلام ما بعد الثورة الناصرية، وقاده ذلك الحلم إلى ترك أهله المزارعين والارتحال إلى القاهرة في ستينيات القرن الماضي. بدأ عمله صبي نقاش باليومية، يبيت في الشقق التي يدهنها، ويتحمل ليالي الجوع وأيام الشقاء بجلد، حتى اكتسب الخبرة وزادت أجرته، وتمكن من استئجار غرفة متواضعة فوق سطح عمارة في وسط البلد. بعد عشرين عاما من العمل في النقاشة، أصبح الصبي معلمًا يطلبه الناس بالاسم، ووضع القرش فوق القرش حتى اشترى شقة فسيحة ذات سقف عال في العمارة التي كان يسكن غرفةً فوق سطحها لا يزيد

اتساعها على بضعة أمتار. ولاحقًا، أسس مكتبًا للإنشاءات في شارع طلعت حرب، وأصر على أن يتخرج ابناه في كلية الهندسة حتى يديرا المكتب بنفسيهما.

اعتقد صلاح أن ثرثرته المفصلة ليست كافية لرسم صورة واضحة للعائلة، فقرر أن يطلعنا على أوصافهم من خلال أخذنا في جولة رتيبة في ألبوم صور أسرة نسيبه، لنجد أنفسنا نسبح عبثًا في طوفان من عشرات الصور العائلية المبهمة على هاتفه.

في البدء، كانت صور فرح شقيقته صباح وميدو منذ عقد فات، بثوب زفافها المبالغ في حجم تنورته ولمعة الترتر التي تغزوه، وحاجبيها الأرفع من شاربي الصرصور. كانت المرة الأولى التي أراها فيها، ولولا أن لها أنفا أفطس وشفتين ضخمتين مثل أخيها، لشككت في صلة القرابة بينهما بسبب بياض بشرتها الشديد وزرقة عينيها اللتين من المستحيل أن يراهما أي إنسان من دون أن يدرك أنهما عدستان لاصقتان رخيصتان تجعلانها تشبه أنثى كلب الهاسكي.

كان عريسها ميدو ممتلئ البنية، ويقصر عنها ببضعة سنتيمترات، ليكون أقصر فرد في عائلة آل رشيد، حتى أقصر من أمه التي تراقصه وتقبل وجنتيه في كل الصور.

بعدما فرغ صلاح من عرض صور زفاف صباح العجيب في معالمه والمريب في تفاصيله، جاء دور عرض صور زفاف رؤوف والد الطفل المخطوف.

كان رؤوف الشقيق الوحيد لميدو ويكبره بعشر سنوات إلا أن عروسه يمنى كانت تصغره بما لا يقل عن عشرين عاما، فبالكاد أتمت الثامنة عشرة من عمرها حتى تتزوجه قانونيا.



كانت عروسًا سعيدة، وضاحكة، وابتسامتها المراهقة تشكل تضادا واضحًا مع وقار رؤوف الأربعيني الذي يكتفي بالتصفيق في أغلب الصور، بينما ترقص عروسه بجواره منسجمة مع صباح وميدو.

في صور هذا الزفاف الذي قال صلاح إنه لم يمر عليه سوى ثلاثة أعوام، كان ميدو شديد النحافة إلى درجة أن تفاحة آدم تبدو كأنها على وشك الفرار من عنقه من فرط بروزها أسفل جلده، بعكس صوره في حفل زفافه حين كان ذا بدن مترهل.

ألقى صلاح عقب سيجارته من نافذة سيارتي ثم استطرد:

- رؤوف راجل ملو هدومه ومحترم. ركز في المذاكرة والشغل لدرجة إنه نسي يتجوز. أنا وصباح جبناله عرايس ياما، ولا واحدة دخلت دماغه. فضل على ديك الحال لحد ما عمته جابتله البت يمنى من البلد. هي الوحيدة اللي عجبته. الصراحة يعني، رؤوف ما بطلش قتامة وتقل دم غير لما اتجوزها وربنا رزقهم بلؤي. ميدو بقى دماغه كانت في هندسة الميكانيكا بس يا ريته فلح. واد أخيب من الخيبة. البيه أبوه كان حاططله مبلغ محترم في البنك ومشتريله شقة في الزمالك، قام طير اللي وراه واللي قدامه على سلسلة محلات موتوسيكلات من بتاعة العيال النية اللي بتلبس جلد على اللحم وتشد على الصحراوي دي. مفيش كام شهر وشريكه كان ناصب عليه، فابن الهبلة اتداين عشان يداري على فشله، وطبعًا الوضع اتطين أكتر. باع الشقة وخد صباح وراح يعيش مع أبوه وأخوه في نفس الشقة. حاكم إن الحاج ما قدرش يتخلى عن رؤوف ويسيبه يتجوز بعيد عنه خصوصا بعد ما خلف لؤي. بس يكون في علمكم برضو من ساعة ما صباح نقلت هنا وهي شايلة الحاج والبيت كله على كتافها. أصل يمنى



دي بت خايبة ومتدلعة ما وراهاش غير الذواقة والعياقة والفيس والإنسطا.

- وصباح مش معترضة على حشرتها مع العيلة في الشقة؟

- الشقة يرمح فيها الخيل، ده غير إن الحاج سايبهم ومقيم في أوضة السطح. اللي الناس تعرفه إن الأوضة دي عزيزة عليه ومعتبرها بيته الأول حتى بعد ما اشترى شقته. وَسَّعها وشدها شدة حلوة. وكل ما يتخنق من الدنيا، يطلع يغير

في تصميمها ودهاناتها، وإشي يبني ويهد وإشي يوسع ويزين.

واللي إنت تعرفه؟

- اللي أعرفه إنه ما عادش يستحمل العيشة في شقته بعد ما طلق الحاجة، فطلع يقعد في الأوضة بطوله عشان ما يشوفش أي حاجة تفكره بيها.

طلق الحاجة في السن ده؟!

كلام في سرك واحلف برحمة أبوك ما تجيب السيرة دي قدام حد...

- انجز!

- الست الشايبة العايبة من قيمة تمان سنين سابت الحاج وهربت مع واد من سن عيالها. والله الحاج ما جالوش المرض غير من ساعتها. بس محدش يعرف الحكاية دي غير رؤوف وصباح وميدو وأنا، إكمنهم استعانوا بِيَّ وقتها عشان أدور لهم على أمهم في الاستخبص. الفاجرة كانت سايبالهم جواب بس هما كانوا مصدومين مش قادرين يصدقوا إن واحدة في السن ده تجيب العار لعيلتها بالساهل كده!



تأثر قطز فعلق مع وصولنا إلى العنوان:

- مش قادر أتخيل شعوره لما عرف إن نصه التاني خانه.

- الحاج رشيد كبير النقاشين ملوش نص تاني يا نسكويك. الحاج رشيد صاغ سليم ومية في المية رجولة وجدعنة ! بس هما الحريم كده على رأي شاكوش: «اتنين ملهمش أمان الفرامل والنسوان».

كاد قطز يدخل في مرافعة طويلة تنديدا بأشعار حسن شاكوش ودفاعًا عن حقوق المرأة، لكني أغلقت باب الجدل معلنا وصولنا إلى العنوان المنشود.

نزلنا من السيارة عند العمارة التي يسكنها الحاج رشيد منذ أيام مراهقته.

كانت العمارة التي يشغل طابقها الأرضي محل الأثاث (Louvre Meuble)، أيقونة في الجمال والرقي، بخشب نوافذها الفيروزي وزواياها المستديرة ومساحتها الهائلة التي تأخذ زاوية شارع مصطفى أبو هيف مع شارع هدى شعراوي، إلا أن منظر أسلاك التكييفات وكابلات الأطباق الصناعية، يتنافر مع أناقة تلك العمارة التي لا شك إن سألت عنها قطز فسيخبرني بأن عمرها يقارب المائة عام، وأن مهندسًا عظيمًا صممها لباشا فاحش الثراء.

رثيت حسن العمارة حتى شتتتني رائحة الكبدة والسجق التي تفوح من عربة كبدة الكحلاوي الواقفة أمام مدخل العمارة تجاهلت أطيط أمعائي وكدت أدخل العمارة، لكن استوقفني موتوسيكل أنيق موجود عند المدخل يبدو أنه باهظ الثمن كان لونه أحمر داكنا يلمع من فرط النظافة، وعلى جانبه كتب طرازه بأحرف فضية بارزة (Shadow).



كنت سأسأل صلاح إن كان هذا الموتوسيكل لميدو، وكيف لشخص مدين مثله أن يمتلكه، لكن قطع حبل أفكاري خروج ثلاثة أطفال يركضون ضاحكين كالعفاريت بينما تصيح فيهم سيدة من فوق سطح العمارة:

- طب وربنا لو لمحتكم هنا تاني لأكون رمياكم من فوق السطوح!

نظرنا إلى أعلى، بينما قال صلاح متفاخرًا:

- دي صبوحة. لا يمكن أتوه عن جعورتها.

* * *

وددت أن أبتدئ تحقيقي مع والدة الطفل المخطوف لكونها الشاهدة الأهم، لكن صلاح أصر على أن نبدأ حديثنا مع شقيقته، فصعدنا أدوار العمارة الستة وصولًا إلى السطح.

كان مكانًا لطيفا، على أرضيته سجاد أخضر ناعم وكأن السطح مزروع بالحشائش. على طول السور، تتراص قصاري زرع ألوانها مبهجة، وفي الأجواء تتداخل روائح الزهور مع الأعشاب، بينما تتمدد أشجار العليق على البرجولة الخشبية التي تعلو مصطبة جلوس أسمنتية مدهونة باللون الزهري البهي، وفوقها وسائد ملونة وغطاء مزركش، وعلى جانبيها أقفاص متعددة لعصافير مغردة.

على يمين مدخل السطح توجد غرفة واسعة، لا شك أنها غرفة الحاج رشيد، تتراص بجوارها مواد بناء من طوب أحمر وشكائر رمل وأسمنت وأدوات البناء اللازمة. على اليسار، كانت صباح تمسك بمقص زراعة كبير وهي لا تزال تصيح في الأطفال متكئة على طاولة عليها مصباح رقيق ينعكس ضوؤه على



أدوات الزراعة العديدة من شوكات تقليب التربة وأكياس الأسمدة ومنجل يجتمع عليه الذباب الأخضر المقزز، الذي كلما حلق أمامنا انزعج قطز وأبعده عنا وهو يسبه اشمئزازا.

صاح صلاح:

- إنت ما بتبطليش صياح أبدًا يا بت؟

التفتت صباح وتركت المقص بجوار قصرية فيها نبتة مثمرة عجيبة، وقالت بحماس وهي تقترب من أخيها البكري:

- ولاد الطفسة كل شوية يقطعوا الورد ويقطفوا العنب

قالتها مشيرة إلى قصرية الثمار الخضراء العجيبة.

- الصياح ده كله على شوية عنب؟!

يعني أسيبهم ياكلوا من عنب التعلب ويتسمموا يا حاحا؟ !

اقشعر بدني من سخافة اسم التدليل الذي تطلقه على صلاح، فتدخلت في حديثهما متحفزا:

- وإنت ليه زارعة نبتة سامة؟!

نظرت إليَّ من رأسي حتى أخمصي قدمي كأنني سببت أسلافها، ثم سألت صلاح:

- مين الأخ؟!



- ده لمونة بيه يا بت اللي حكيتلك عنه.

التفتت صباح إلي قائلة:

- ألا إيه حكاية اللمونة اللي في جيبك دي؟

كدت أجيبها إجابة عارية من الصحة، لكنها لم تمهلني وقالت وهي توكز أخاها:

- تراهني على كام يا حاحا إن لمونته دي فيها جن هو اللي بيخليه يحل القضايا العورة اللي بتقول عليها؟

- أراهنك على عشرين جنيه مقفولة.

ضرب كل من الشقيقين اللذين رضعا مخزون العالم من السخافة وثقل الدم كفه بكف الآخر وهما يقهقهان.

قاطعهما قطز:

- ليكم عين تتلشوا وتستظرفوا وفيه عيل من عيلتكم لسه ما اتفطمش مخطوف؟!

شعر الشقيقان بسخافتهما فتوقفا عن الضحك.

سألت صباح مجددا:

- ليه بتزرعي نبتة زي دي؟

– باعمل منها ماسكات للبشرة والشعر.



- لا مؤاخذة يا صبوحة ما أنا ما حكيتلهمش. صبوحة يا بهوات اتعلمت الزراعة وخلطات البشرة من أمي، ده سر حريم العيلة عندنا. ومن ساعة ما نقلت هنا زرعت السطح كله، وعملت مشروع ماسكات وكريمات طبيعية، وبتبيعها على النت وعندها متابعين ياما. ابقوا اعملولها متابعة ومشاركة وفعلوا الجرس، حسابها اسمه صبوحة بيوتيز باتنين زد.

تجاهلت هراءهما وأخرجت دفتري الأسود الصغير ودونت فيه:

«صباح تزرع نباتًا ساما»!

كدت أدوّن المزيد، لكن استوقفني صوت أزيز باب الغرفة يُفتح لتفوح منها رائحة ثقيلة صاحبت خروج الحاج رشيد بملابس ملطخة بالدهان وملامح

يكسوها الحزن والأسى، وهو يسير نحونا متكئا على عكازه الأسود اللامع.

كان رجلا ذا قامة مفرودة لم يحنها الزمن، وتنتشر على ذراعيه السمراوين بقع حمراء غريبة، وتنتأ من بين شفتيه الرفيعتين لثتان زرقاوان وأسنان أطرافها سوداء داكنة عجيبة الشكل لم أر مثيلا لها من قبل.

أسرعت صباح نحوه قائلة بعتاب حنون:

- برضك كملت شغل يا بابا؟

رأيت من الباب المفتوح نضدًا ضخمًا أسفل النافذة، يمتد من الحائط وحتى منتصف الغرفة وقد طلي حديثا بالدهان الأبيض الذي عبأت رائحته السطح كله، فاستنتجت أن هذا ما تعنيه صباح بـ «شغل».

أجابها الحاج رشيد:



- أهو أي حاجة أشغل بيها نفسي يا بنتي. أنا لو فضلت قاعد كده ها تجن!

قالها الحاج وهو يقلب نظره تجاهي وتجاه قطز بفضول، فانتهز صلاح الفرصة قائلا:

- أعرفك يا حاج، البهوات زمايلي في القسم، وجايين عشان موضوع لؤي.

ضرب الحاج الأرض بعكازه وثار في وجه صباح قائلا بلهجة محافظته التي لم يتخل عنها حتى بعد إقامته في القاهرة قرابة ستة عقود، فيشدد على الياء المكسورة في نهاية الكلام ويمطه:

- عملت اللي في دماغكِ وبلّغتِ الشرطة! افرضي اللي خاطفينه عرفوا؟ الله الوكيل، الواد ده لو اتأذى ليكون ذنبه في رقبتك!

سألت الجد المكلوم:

- فيه حد من اللي خاطفينه تواصل معاكم بخصوص فدية؟

- لأ، بس ما دام فيه مخطوف، يبقى فيه فدية.

- فيه دوافع كتير غير الفلوس، انتقام مثلًا.

- انتقام؟! تقصد حد عايز يحرق قلبي على لؤي يعني؟

- وارد جدا، بس...

قاطعني الحاج رشيد قائلا لصلاح:

- هما زمايلك إجوا عشان يفوّلوا على حفيدي الوحيد يا سي صلاح؟!



- مش القصد يا حاج بس زمايلي لازم يفكروا في كل حاجة عشان يعرفوا يقفشوا ابن الحرام اللي خطف لؤي دي حاجة عندنا في المباحث اسمها دافع.

- لا دافع ولا غيره أنا عارف باقولك إيه، هو هيطلب فدية، هادفعهاله ونخلص من الحكاية كُلَّتها.

سألته:

- هو مين يا حاج؟

راقبته يرمق صباح بنظرات حادة جعلتها تهرب من عينيه متظاهرة بأنها تتأمل ساعة الغروب.

صمتهما الثقيل ونظراتهما المتبادلة جعلاني أكون سيناريو مبدئيا في دماغي وأدوّن في دفتري:

«صباح ورشيد يخفيان شيئًا»!

تلفت حولي أشاهد نبتة عنب الثعلب، ثم سألت صباح:

- فين ميدو؟

ما شفتوش النهارده.

أجابني الحاج:

- غار للغردقة مع صحابه الشين!



سألني قطز هامسا:

- شين دي شتيمة؟

دي الكلمة الوحيدة اللي ما فهمتهاش يعني؟!

علقت صباح:

- لأ يا بابا ما سافرش.

- ايش عرفك؟ هو بنفسه كان قايلي ديك النهار إنه مسافر .

- ميدو ما بيسافرش من غير الموتوسيكل بتاعه. وبعدين هو قالي إنه رايح النهارده لطماشة عشان يتابع معاه الشغل.

ضحك الحاج رشيد ساخرًا، وكرر كلمات صباح باستهزاء، ثم قال:

- كان بيهوي عليك يا بنتي. لا مؤاخذة يا باشوات، هاصلي المغرب جماعة وأرجعلكم، البيت بيتكم.

اتجه إلى غرفته وأغلق بابها بمفتاحه ثم نزل من السطح، فقلت لصباح فور رحيله:

- عايز أتكلم مع أم الواد وأبوه.

- حاضر. بس بالله عليكم بالراحة أحسن حالهم يصعب على الكافر.

* * *



بمجرد أن ذكرنا اسم لؤي أمام أبيه في أثناء جلوسنا في صالة الشقة الفسيحة ذات الصالون الفرنسي الكلاسيكي خلع نظارته الطبية وانهار باكيا.

ربتت زوجته الشابة التي تفوح منها رائحة المسك على كتفه ومسحت دموعه، بينما فرت منها عبرات هادئة جففتها بطرف حجابها الأبيض الملقى فوق رأسها بتكاسل.

توقعت العكس، تنهار الأم ذات الأعوام العشرين فيحتويها الأب الأربعيني، لكن يبدو أن التماسك والقوة لا علاقة لهما بتاريخ ميلاد الإنسان.

قصت علينا يمنى ذات النمش والعينين الخضراوين اللتين ورثتهما لابنها ما صار في ذاك اليوم المشؤوم على حسب ٦ وصفها.

تعرض لها شاب نحيف ملثم على موتوسيكل صيني رخيص من دون لوحات وخطف ابنها من يدها على غفلة ثم لاذ بالفرار.

دونت كل التفاصيل التي سردتها ثم سألتهما:

- شاكين في حد معين؟

تماسك رؤوف وأجابني:

- طماشة السرسجي شريك ميدو. الحركات الوسخة دي ما تطلعش غير منه.

- إشمعنى؟

- ميدو عليه دين بسبب شراكة فاشلة جديدة معاه.

طماشة جه مكتبي يوم الأربع وهددني أدفع دين ميدو فرفضت.

قاطعته يمنى بلهجة لا تختلف كثيرا عن لهجة حميها بل أكثر قوة منه:

- آني قلتلك يا رؤوف مش كنت رفضت. كنت دفعتله وخلصنا.

أدفع ديون ميدو تاني قصدي عاشر! هو أنا باحط صوابعي في الشق عشان أدفع تمن مغامراته؟ كان لازم يتعلم يتحمل نتيجة أخطائه ولو مرة واحدة. مش كل مرة أنا اللي أشيل القرف لوحدي.

آدينا إحنا اللي دفعنا التمن وحدنا يا رؤوف، والتمن كان إيه؟ ابني!

ساد الصمت للحظة أعتقد أن صباح تمنت فيها لو تنشق الأرض وتبتلعها من فرط الإحراج البين على وجهها.

سجلت اسم طماشة في دفتري ووضعت تحته ثلاثة خطوط، ثم سألت رؤوف:

- أفهم من كده إن ميدو السبب؟

- طماشة يهددني وتاني يوم ابني يتخطف. صدفة؟

- تمام. ادينا عنوانه.

دونت عنوان طماشة، وأنصت لصباح وهي تقول على استحياء:

- بس يا رؤوف، إنت عارف إن ميدو عمره ما هيدخل لؤي في المشاكل دي، ميدو عمره ما...

صاحت يمنى:



- الله الوكيل يا أبلة صباح مش تخليني أفتح إلكي في اللي فات.

سألت يمنى:

وهو إيه اللي فات؟

أجابني رؤوف:

- يا باشا أنا لا هاممني اللي فات ولا اللي جاي، أنا عايز ابني! لؤي عنده حساسية شديدة على صدره ومحتاج رعاية دايمة وأدوية كل اتناشر ساعة.

مفهوم طبعًا، بس إحنا محتاجين إجاباتكم عشان نلاقيه في أسرع وقت. ميدو اتداين من طماشة بكام بالظبط؟

مليون جنيه وربع.

- إيه البيزنس اللي يخليه يتداين بمبلغ ضخم زي ده؟

ساد صمت بين أفراد الأسرة يغلفه التوتر، فنظرت إلى صلاح منتظرًا منه توضيحا، ففهم المغزى من نظراتي إليه وأجابني سريعا:

- كانوا بيضاربوا في البورصة.

«صلاح هو الآخر يخفي شيئًا»!

حدقت إلى صلاح بصمت أربكه بعدما كتبت تلك الجملة، حتى اضطر إلى أن يضحك ضحكة متوترة ويقول:

- إيه؟ إنت مش مصدقني؟ قوليله يا صباح.



كررت صباح كلام أخيها وأقسمت إن زوجها أضاع مليونا وربع المليون جنيه في المضاربة بالبورصة.

استشعر قطز مثلي أن هناك معلومة ما يصر آل رشيد على إخفائها، فنظر إلى صباح وسألها:

- كان بيضارب في أسهم شركة إيه بالظبط؟

لم يُجب أي منهم، فتبادلت النظرات أنا وقطز ثم نهضت قائلا:

- عايز أشوف أوضة ميدو.

* * *

يمكنك أن تعرف الكثير عن أي شخص من غرفته.

عرفت من النظرة الأولى التي ألقيتها على غرفة ميدو الفوضوية شيئين: أولهما، أنه رجل نموه العقلي والنفسي لم يتخط فترة مراهقته بعد. كانت ملاءة سريره سوداء وعليها صور كارتونية الموتوسيكلات حمراء، والحوائط مليئة ببوسترات الراكبي الدراجات (Hells Angels) وصور فرق البلاك ميتال. وملابسه ملقاة خارج خزانة الملابس مفتوحة الأدراج، وأحذيته وجواربه مبعثرة في زوايا الغرفة، والمِرمَدة بجوار سريره ممتلئة بأعقاب السجائر، وحاسوبه المحمول متروك أسفل السرير.

وثانيهما، أنه يقيم في غرفة طفولته بمفرده، فأنا لم أر أي لمسة أنثوية في تلك الغرفة المتصابية، ولم ألمح الأثر الذي من المفترض أن تضيفه صباح إلى مسكنهما كما تفعل أي أنثى في حياة زوجها.



تبعتنا صباح إلى الغرفة واقتربت من الخزانة لتلملم ملابس زوجها وهي تقول:

- أنا آسفة على البهدلة دي ثواني وهاروقلكم الدنيا.

- سيبي كل حاجة مكانها واخرجي. محدش يدخل الأوضة طول ما إحنا فيها!

هزت رأسها بتوتر ثم نفذت أمري، وتركتني مع قطز وصلاح في الغرفة.

استغل قطز انفرادنا بصلاح فقال له:

- أنا حاسك مش جاي معانا دوغري.

- إحساسك مش في محله يا نسكويك.

وديني يا صلاح، لو نادتني بالاسم ده تاني لأسيبك تولع إنت وأختك ونسايبك اللي أنا مش مرتاحلهم دول.

تركتهما يتشاجران بينما لفتت انتباهي سترة جلدية سوداء بلا كمين، مطرز على ظهرها بالأحمر اسم نادي دراجات بخارية بالإنجليزية وعلى جيبها رقم ١.

لم أفهم دلالة تلك النسبة، لكن تلك السترة الملقاة على طرف السرير لم تلفت انتباهي بسبب تصميمها الأمريكي المميز، بل بسبب الورقة البارزة من جيبها.

كدت أنتشل الورقة من السترة كي أفحص محتواها، لكن أطبقت على صدري رائحة دخان ثقيلة ممزوجة بالكحول والسكر المحروق والبنزين. شعرت بأن أنفاسي تتباطأ، وبأن شعر بدني كله ينتصب كأن ماشا كهربائياً ضرب الغرفة، ثم سمعت صوتا ذكوريا ذا طبقة رفيعة يقول بنبرة خملة:



- إيدك والفيست بتاعي يا لورد!

التفت خلفي لأرى صاحب الصوت. كان ميدو يبدو تماما كما رأيناه في صور زفاف رؤوف ويمنى، شعره أحمر مجعد، ووجه شاحب يملأه النمش وبدنه شديد النحافة، وعيناه عسليتان مرهقتان تحيط بهما هالتان سوداوان.

الفارق الوحيد بين الواقع والصور، هو أنه في الصور كان حيا يرزق، أما الآن فما يقف أمامي هو روحه!

شعرت بكف تلمس كتفي، فانتفضت في مكاني لأجد قطز يضع يده علي وهو يقول:

مركز في إيه؟

- بعدين.

- طب هتشرب شاي ولا هتكمل تدوير؟

قالها مشيرًا بذقنه إلى اتجاه الباب لأنتبه إلى أن صباح تقف عنده حاملة صينية الشاي وتدعونا لشربه بابتسامة متوترة.

تُرى، أتعرف أن روح زوجها المتوفى تطوف في غرفة نومه الآن؟



٤

جلست أنا وقطز وصلاح نشرب الشاي في الصالة بالقرب من غرفة ميدو الذي تطوف روحه حولنا. أخذت أراقب محاولاته اليائسة لالتقاط علبة سجائري من فوق الطاولة كي يدخن منها، إلا أنه فشل في ذلك، فهو كسائر أرواح الموتى، لا قدرة له على لمس أي شيء مادي أو تحريكه من مكانه.

تمتم يائسا بصوته الخمل ولسانه الثقيل:

- هي قلة المزاج ورايا وأنا عايش وأنا ميت!

جذب انتباهي صوت شيء يسقط في غرفة ميدو وهمسات نسائية غاضبة.

أطلت في مراقبة ميدو والتظاهر بأنني مثل باقي الجلوس لا قدرة خاصة لدي على رؤية أرواح الموتى، وفي أثناء ذلك يبدو أنني غفلت عن صباح ويمنى وهما تتسللان إلى غرفة ميدو.

تركت كوب الشاي عديم المذاق، وأسرعت إلى غرفة ميدو وأنا أسمع يمنى تقول:



- هما البهوات مش قالوا إلكي محدش يدخل الأوضة؟

انتبهت صباح لخطواتي وأنا أدخل الغرفة، فأسرعت تغلق خزانة الملابس قائلة:

- أعملكم دور شاي تاني؟

بمجرد أن التفتت يمنى ورأتني أقف خلفها، انسحبت من الغرفة وهي تبتسم لي بامتنان غامض. انتظرتها حتى خرجت ثم سألت صباح:

- إمتى آخر مرة شفت ميدو؟

- إمبارح على نص الليل فوق السطوح.

- مع أبوه؟

- لأ، بابا صدره ما استحملش سقعة السطوح. طول الليل كحة وعطس عشان الرصاص زاد عليه.

- رصاص إيه؟

بابا عنده تسمم مزمن من الرصاص بسبب شغله في البويه زمان، دلوقت العلاج بيهدي الوجع شوية بس بيزيد عليه في البرد.

يعني ما باتش فوق السطح؟

- بات هنا ونام بعد صلاة العشا، وأنا نمت على نص الليل، بس حسيت بحركته وهو بيتوضا وبيخرج من الشقة قبل أذان الفجر بشوية عشان يصلي في الجامع.

- وميدو طلع يعمل إيه فوق السطح في الوقت ده؟

مش عارفة، أنا مش ست نكدية وزنانة يعني، أحب أسيب راجلي يرحرح مطرح ما يحب.

- وهو بيحب يرحرح في أوضة لوحده من غير مراته ليه يا صباح؟

- قصدك إيه بالظبط؟

- إنت وميدو متخانقين؟

قبضت كفيها البضتين، وآثرت الصمت للحظة ثم قالت منفعلة:

أيوه متخانقين. فين المشكلة؟

- مفيش مشكلة لحد دلوقت.

ارتبكت، خصوصا أنني ختمت جملتي بابتسامة باردة قائلا:

- شكرا يا صباح عايزين نكمل شغلنا.

أطلع يعني؟

هززت رأسي بالإيجاب فشعرت بالمزيد من الإحراج وخرجت.

لم ترتب أو تلملم أي شيء في الغرفة، لم يختلف شيء في المكان سوى سترة ميدو الجلدية التي تحركت من مكانها، ودرفة خزانة الملابس أصبحت مغلقة بإحكام.



انتشلت السترة من فوق السرير، فصاحت روح ميدو من خلفي فجأة للمرة الثانية:

ما قلنا إيدك والفيست بتاعي يا لورد بدل ما أقل منك! أخذ المسطول يلوح بقبضتيه في الهواء ويركل شيئًا خفيًا، ويصيح صيحات قتال هزلية تليق بفيلم «قبضة الهلالي» وهو يتمتم صوبي مهددًا:

- ها دغدغك! ها تففك سنانك!

تجاهلت تفاهة ميدو وبحثت عن الورقة في جيب السترة لكني لم أجدها.

صباح اللعينة!

نظرت خلفي فوجدتها تجلس على المقعد المقابل لباب الغرفة وهي تراقبنا وتهمس إلى أخيها بتوتر.

تلفت حولي وإذ بقطز يهمس لي:

- بتدور على إيه؟

- مش عارف. أكيد هالاقي حاجة تأكدلي السيناريو اللي في دماغي.



صباح لم تلمس شيئًا في الغرفة غير خزانة الملابس والسترة الجلدية التي تحمل ورقة لا شك أنها قيمة وستدين أحد أفراد الأسرة.

فتحت الخزانة فمدت صباح عنقها أكثر لتراقب ما أفعله.

لم يكن هناك شيء مريب أو مثير للشكوك داخل الخزانة، والسبب بسيط، أيا

ما كان الدليل الذي من المفترض أن أجده فيها فقد استغلت صباح لحظة خروجنا من الغرفة وتمكنت من إخفائه.

وقفت في منتصف الغرفة أدقق النظر مرة أخرى مقارنا ما رأيته قبل وبعد دخول صباح إليها بحجة ترتيبها. ما زالت الجوارب والأحذية مبعثرة في زوايا الغرفة، والثياب على السجاد، ونصف اللحاف على الأرضية، والحاسوب المحمول أسفل السرير، والبوسترات على الحوائط، وبوستر (Hells Angels) مثبت من الزوايا الأربع، لكن الزاوية اليمنى مرتخية بعض الشيء و ... مرتخية بعض الشيء!

وقفت أمام البوستر الذي لا أذكر أن لصقه كان مرتخيا قبل خروجنا من الغرفة، وتأملته هنيهة حتى لمحت مرادي. أزلت بقايا اللصق عن زاويته اليمنى لأجد الورقة التي كانت في جيب السترة الجلدية، ملصوقة في ظهره بلاصق شفاف مقطوع بطريقة عشوائية، فبالطبع من ألصق الورقة خلف البوستر كان على عجلة من أمره، حتى إنه ألقى بكرة الشريط اللاصق أرضًا في الزاوية.

- إيه دي؟



بالطبع كانت صباح صاحبة السؤال واقفة عند عتبة الباب وخلفها يمنى وصلاح، بينما ظل ميدو واقفًا بجواري متمتما بانبهار:

- يا ابن القردة

لم أجب صباح، وقلت لقطز وأنا أشير إلى أسفل فراش ميدو:

- هنحتاج اللابتوب ده معانا.

سألتني يمنى:

التقيتوا حاجة يا بهوات؟

- من فضلك يا مدام يمنى، أنا وقطز هنستناك تحت عشان تورينا المكان اللي لؤي اتخطف منه.

خرجت من الغرفة بينما صلاح يقول:

- ما تنطق يا جدع! إيه الورقة دي؟

ابتسمت له ببرود ووضعت حل اللغز في جيبي، وقطز يتبعني حاملا الحاسوب المحمول.

لقد وجدت مرادي في هذه الورقة التي أعطتني حل لغز القضية بعد أقل من ساعة من التحقيق فيها.

* * *



استندنا إلى باب سيارتي في انتظار يمنى أمام العمارة. سألني قطز وأنا أشعل سيجارتي:

- الورقة فيها إيه؟

أخرجتها من جيبي لأعطيه إياها، فقرأها ثم أعادها إليَّ قائلا:

- ميدو؟!

- طبعًا! تراهن بكام إن العيال بتوع الـ«IT» لما يفتحوا اللابتوب هيلاقوا إن

الورقة دي اتكتبت عليه واتطبعت منه؟

- من غير رهان. إحنا نجيبه من قفاه ويعترفلنا على مكان الواد و...

- مات.

- إزاي؟!

- مش عارف.

- طب إمتى؟

- من يوم على الأقل. روحه في الشقة. استوعب قطز الأمر سريعًا وهم أن يطرح علي مزيدًا من الأسئلة، لكنه آثر السكوت حين لمح صلاح ينزل من العمارة ويقترب صوبنا قائلا:

جرى إيه يا بهوات؟ مش عيب شغل فوازير نيللي وشريهان اللي عملتوه فوق ده؟



- وإنت مش عيب تجوز أختك لديلر يا صلاح بيه؟

راقبت وقع كلماتي عليه وتحول تعبيرات وجهه. رفع حاجبيه الكثين حتى كادا يلتصقان بشعره، فقد جلدته بسوط الحقيقة جلدة مباغتة لا تمهيد لها ولا تهويل فيها، مما أربكه أكثر.

أنزل حاجبيه ثم ضحك ضحكة ساخرة تبعها بقوله:

- ديلر إيه يا ابني؟! أحلام العصاري دي ولا إيه؟!

قابلت استنكاره الهش بلا مبالاة وأنا أنفث دخان سيجارتي في اتجاهه من دون أن أرفع عيني عنه ، هدوئي زاده ارتباكا، فحك ذقنه فسو الفه وأخرج سيجارته وأشعلها وهو يتلفت حول نفسه، ثم قال بصوت خفيض:

- ما كانش ديلر لما اتجوزها. منهم لله صحاب السوء جروه للسكة الزفت دي من ساعة صدمته في أمه. أقسم بالله ما كان بيحط سيجارة في بقه، الله يجحمك يا حاجة مطرح ما رحت. إنت عرفت منين؟

عرفت من رائحته.

إنها تلك المعلومة التي تعلمتها منذ أن احترفت التواصل مع أرواح الموتى. عند ظهور روح الميت يمتلئ المكان برائحة الشيء الأقرب إلى قلبه أو الشيء الذي داوم على استعماله، وما شممته عند ظهور ميدو كان رائحة تشبه خليط السكر المحروق مع البنزين، أي رائحة الكوكايين.

بالطبع ما كنت لأشارك صلاح تلك المعلومة، فلا أحد يعرف أنني أخاطب أرواح الموتى سوى قطز ودليلة وجدتي.



أجبته بالمنطق:

– واحد متداين بمليون جنيه وربع، وكلكم ارتبكتوا لما سألتكم عن مشروعه. ما جاش في دماغي غير إن ده سعر كيلو الكوكايين اللي المكافحة لسه قافشة بيه ديلر من يومين.

طب يا عبقري، هتعمل إيه بقى بالمعلومة دي؟

أجابه قطز:

- ما تخافش يا صلاح، مش هنسيحلك.

- مش القصد إيه المكتوب في الورقة اللي خدتها دي؟

وعايز اللابتوب بتاعه في إيه؟

أنهيت سيجارتي ودهستها بنعلي، ثم قلت وأنا أتابع يمني تخرج من العمارة بتنورتها الطويلة وبلوزتها الفضفاضة وحجابها الأبيض وتقترب من سيارتنا:

- كله في وقته يا صلاح اتكى ع الصبر.

سألت يمني:

- جوزك مش جاي؟

- إحنا متفقين مش نسيب البيت في نفس الوقت عشان لو واحد من ولاد الشينة اللي خطفوا لؤي اتصل ولا بعت جواب.

لم أجد فيما قالته تفسيرًا منطقيا، لكني لم أناقشها على أي حال.



كنت سأفتح لها باب السيارة الخلفي على سبيل الكياسة، لكنها سبقتني وفتحت الباب المجاور لي قائلة:

- هاقعد في ريحك عشان أوصف الطريق إلك.

جلست في المقعد الأمامي، وخلفنا قطز وصلاح وثالثهما روح ميدو يمد أنفه في محاولة مثيرة للشفقة لاستنشاق دخان سجائر صلاح وهو يقول ساخرا:

- والله وجه اليوم اللي أشحت فيه دخان الكليوباترا المنفسة!

* * *

قادنا وصفها إلى شارع ضيق يتفرع من شارع فرعي يتوارى عن زحام وسط البلد.

لا محال عملاقة، ولا مطاعم ممتلئة. لم أر سوى بعض المارة من كبار السن يحملون أكياس الخضراوات والبقالة بين بنايات قديمة قليلة الارتفاع تحمل طابعا شعبيا بسيطاً.

يكثر الشجر على جانبي الشارع مما لا يترك مساحة كبيرة للمارة، وتتكاتف الأشجار وتتعانق أغصانها الغزيرة عند مدخل الشارع ومخرجه.

تركنا يمنى في السيارة، وترجلنا في جولة قصيرة في المنطقة برفقة صلاح حتى يعطينا ملخصا بما قام به من تحقيقات واستجوابات مع سكان الشارع.

أوضح لنا أن يمنى قادته إلى الشارع نفسه فور أن عرف بخبر اختطاف ابنها. ووفقًا لكلامه، فقد أخذ إفادات الجيران جميعًا، لكنه لم يجد معلومة مفيدة واحدة عند أي ممن استجوبهم حول واقعة الاختطاف.



تأملت تفاصيل الشارع الهادئ، كان خاليا من كاميرات المراقبة إلا كاميرا واحدة تابعة لصيدلية عند الناصية. وقفت أتفحصها فتبينت أنها من نوعية (Dome) التي لا تدور دورة كاملة لتعطيك رؤية شاملة للمكان، بل تكشف لك عن زاوية محددة لمنطقة واحدة ثابتة.

أدرك صلاح أنني أتأمل الكاميرا فعلق أبو المفهومية الذي تقف روح ميدو خلفه وتتتبع كل خطواته منذ أن نزلنا من السيارة:

- كاميرا جديدة تلاقي صاحب الصيدلية حس إن فيه لبش في الشارع فقام مركبها بعد ما حققت معاه.

هززت رأسي ثم نظرت إلى كشك البقالة على الناصية وقلت لقطز:

- شفلنا حكايته.

قال صلاح:

- ما شافش حاجة.

- مركب كاميرا؟

رأيت العجز عن الرد على وجه صلاح الأبله، فزفر قطز وقال مستهزئا:

- مش عارف كنا هنعمل إيه من غيرك يا صلاح بيه!

- لأ باقولك إيه، مش عشان جَلَّت مني مرة هتتنقور عليَّ، الجمل لو نخ عيب حمولة مش عيب رجولة يا نسكويك.



سبه قطز في سره ثم ذهب إلى البقال، بينما طلبت من صلاح أن يستدعي يمنى من السيارة لتقص علينا ما صار.

وقفت في مسرح الجريمة، تحديدًا في منتصف الشارع حيث اختطف منها لؤي، وبمجرد أن استرجعت تفاصيل ما مرت به انهارت باكية.

بالكاد تمكنت من فهم تفاصيل ما تسرده عليّ، واستطعت طرح بعض الأسئلة عليها بين دموعها المنهمرة ورعشة شفتيها ومصطلحات لهجتها التي لا آلفها:

- ده طريقك كل يوم للحضانة؟

- إيوه.

- حسيت إن فيه حد بيراقبك قبلها؟

- مش حسيت.

- تمام. كل يوم بتروحي الحضانة مشي؟

- لأ، بس بقالي يومين باتمشى عشان باخس.

- الولد اتخطف منك الساعة كام بالظبط؟

- حداشر الضهر.

- كنت رايحة ولا راجعة من الحضانة؟

- راجعة. الأبلة اتصلت بي وقالت إن لؤي عيان فرحت بدري عن ميعاده.

- إيه مواصفات اللي خطفه؟

- مش شفت وشه. كان مغطيه بكوفية ونضارة شمش كبيرة.

- يعني مفيش حاجة ملفتة في شكله؟

- كان رفيع وشعره كنيش.

- زي شعر ميدو ؟

- لأ. شعره كان أسمر، وراكب مكنة صيني مش إلها نمر، شد الواد مني وهرب.

- وإنت عملت إيه ؟

علق صلاح:

- هتكون عملت بامية؟! ما أكيد صوتت.

تجاهلت تعليقه الساذج، وسألت يمنى ثانية بنبرة أكثر جدية:

- كان إيه رد فعلك؟

- صوت طبعا، صوت جامد.

- ومحدش اتلم عليكِ ؟

- ما آديك شايف الشارع متطرف إزاي، مش كان فيه غير بياع خضار معدي بعربية كارو هو اللي هداني.

دونت كل ما قالته بينما عاد قطز من عند الكشك يقول:

- الراجل ما شافش حاجة غريبة، ومركب كاميرا ديكور عشان أي حرامي يقلق.

- فيه حاجة لفتت نظرك؟

- آه. قال إني مش أول حد يسأله عن الكاميرا دي.

قال صلاح:

- ما عشان أنا سألته قبلك يا ابني.

نفث صلاح دخان آخر سيجارة في علبته، فالتفت صوب كشك البقالة الذي استجوب قطز صاحبه توا، ثم انسحب ليشتري مزيدًا من السجائر، وابتعد عنا في رفقة ميدو.

سالت دموع يمني مجددًا، ثم ارتعشت باكية وهي تقول: آني مش قادرة أصدق! باحاول أمسك نفسي قدام رؤوف والحاج رشيد بس هاموت من قهرتي على لؤي. صارحني يا باشا، هو لؤي كده خلاص مش هيبات في حضني تاني؟

أجابها قطز:

- أوعدك إننا هنعمل كل حاجة نقدر عليها، هنلضم الليل بالنهار لحد ما نلاقيه.

يا للشاعرية!

هزت يمنى رأسها مصدقة وعود صديقي مرهف الحس، بينما مرت أمامنا سيدة في منتصف الخمسينيات لها حاجبان لا شك أنهما رسما بقلم فلوماستر منتهي الصلاحية.



كانت تدقق النظر فينا من خلف عدستي نظارتها كعب الكوب حتى وقفت أمامنا تقول منشكحة بلهجة تشبه لهجة يمنى قليلاً:

- بت يا يمني! إنت إجيت من البلد إمتى؟

مسحت يمنى دموعها وأخذت تعدل حجابها وهي تجيب السيدة:

- إجيت ديك النهار.

- ومش تعدي على أم أسماء؟

الله الوكيل كنت ناوية أعدي.

- إمتى؟ أصل الو...

- النهارده يا أم أسماء، بس ربك عالم بالظروف. نقلت أم أسماء نظرها بيني وبين قطز، ثم سألت يمنى بقلق:

- خير يا بت؟ مين البهوات؟

بعدين يا أم أسماء، هابقى أجيلك.

ماشي. وصلي سلامي للباشمهندس.

- يوصل.

ابتعدت عنا أم أسماء تحك الأسفلت المترب بشبشبها المهترئ، حتى دخلت عمارتها على بعد بضعة أمتار من مكان وقوفنا.

فور أن اختفت عن نظرنا، قالت يمنى:

الله وكيلك يا باشا، مش تجيب سيرة أم أسماء قدام رؤوف أو أي حد من العيلة.

- إشمعنى ؟

- دي ست بلدياتي مهبوشة كانت عايزة تجوزني ابنها وأبويا رفضه عشان عواطلي ، بس برضك فضلوا متدبقني حتى بعد ما اتجوزت وخلفت، وابنها قليل الحيا لسه بيسأل علي. حبيبك النبي أنا مش عايزة مشاكل، أحسن رؤوف بيركبه ميت عفريت من السيرة الشينة دي.

أسرع قطز قائلا:

- الواد ده ممكن يبقاله يد في خطف لؤي؟

- مش للدرجة دي يا باشا، هو آه ابن صرمة بس مش خطر.

سألتها:

- اسمه؟

- اسمه نور يا نوح باشا. بس بالله عليك بلاش مشاكل وتجيب اسمه في المحضر.

تدبرت حكايتها، لكن قطع حبل أفكاري صوت تجشؤ صلاح المقزز وهو يقترب منا متجرعًا المياه الغازية التي اشتراها مع السجائر، وما زال ميدو يتبعه كالجرو الضال:

- وصلتوا لإيه يا باشوات؟



ألقيت نظرة أخيرة على الشارع ثم دونت بضع ملاحظات وقلت:

شكرا يا مدام يمنى صلاح هير جعك البيت وإحنا هنبدأ نشتغل على القضية، بس احتمال نحتاجك تاني في كام سؤال أثناء التحقيقات.

على غرار مسرحية عادل إمام «شاهد ما شافش حاجة»، فهذا «شارع ما شافش حاجة». لا كاميرات، لا شهود، لا معلومة واحدة يمكن أن نعدها بداية الخيط.



٥

أرسلنا حاسوب ميدو المحمول إلى المعمل الجنائي، واستعجلناهم لتحليل محتوياته ومطابقة الورقة المطبوعة بملفات الحاسوب، ثم اتجهنا في الصباح إلى عنوان طماشة الذي كتبه لنا رؤوف في شارع شامبليون.

إن كنتُ قد تعلمت شيئًا من الأفلام الوثائقية التي يتابعها قطز ليلا ونهارًا، فهو أن الكائنات جمعاء تتبدى على حقيقتها حين تراقبها في بيئتها الأصلية.

لهذا، قررت أنا وقطز أن نذهب إلى طماشة في عقر داره حتى نشكل انطباعًا أوليًا عنه قبل أن نستجوبه في القسم.

لم يكن من الصعب العثور عليه، فقد كان يملك ورشة ميكانيكا سيارات متواضعة الحال تحمل اسمه العجيب أمام قصر شامبليون الذي أصبح خرابة تبكي تماثيله الخارجية التي تزين واجهته من قبح محيطها.

صففت السيارة أمام الورشة مباشرة، حيث جلس أربعة رجال على كراسي خشبية تحمل أبدانهم المترهلة بمعجزة وهم يدخنون الشيشة من المقهى الشعبي المجاور في أثناء انتظار إصلاح سيارتهم على يد صبية أكبرهم عمره لا يتخطى الأربعة عشر عامًا.

نزلت أنا وقطز من السيارة من دون أن أوقف محركها فقلت لأقرب صبي أمامي:

- ناديلي طماشة.

أجابني صوت خشن مجهول المصدر:

مين اللي بينكش؟

صدر الصوت من خلف سيارة من إنتاج القرن الماضي لشركة النصر.

كان الصوت لشاب في أواخر العشرينيات لا يجوز وصفه بكلمة غير أنه برص نزل عن الحائط، وقرر أن يجلس على كرسي صالون مذهب ضخم، ليشرب شايا في كوب قذر ويدخن سيجارة ويضع أخريين خلف أذنيه. كان أنحف إنسان رأيته في حياتي، يلبس نظارة شمس سوداء مستطيلة أعرض من كتفيه، ويغوص داخل سترة فوشيا أفقع من أي لون كنت أسخر من صلاح لارتدائه، وجينز قذر ممزق عند ركبتيه المقشفتين، وتزين عنقه ورسغيه وأصابعه كمية مبالغ فيها من الفضة التي أتساءل كيف يتحمل عود القصب هذا ثقلها على صدره وكفيه.

سألت البرص الناطق:

طماشة؟

زحزح نظارته حتى أرنبة أنفه فرأيت عينيه اللتين احمرتا من فرط الحشيش، ثم قال بصوته الخشن العريض المتنافر مع جسده الضئيل:

مين اللي بيستفهم؟



نظر إليَّ نظرة متفحصة، فحرصت على أن أزحزح طرف سترتي وأبرز كعب

مسدسي في جرابه، حتى لا يرتكب أي فعل متهور.

بمجرد أن لمح المسدس، زفر بضجر وأنهى سيجارته في نفسين، ثم ابتلع شايه المغلي على دفعة واحدة، ونهض بهدوء عن عرشه المذهب، ونظر إلى الدور الأول من البناية فوق ورشته وراح ينادي:

أماااااه! أماااااتي!

خرجت سيدة أربعينية بدينة من نافذة الشقة ملقى فوق رأسها حجاب أسود منسدل حتى صدرها:

- إيه؟

- نزليلي سجاير وغيارين نضاف في السَّبَت عشان هاتضايف.

نظرت الأم السمراء نحونا بارتياب ثم سألت ابنها:

- طياري ولا إقامة؟

التفت طماشة إلينا وسألنا بأريحية عجيبة

- لا مؤاخذة أباشا، الطلعة دي ميري ولا شكل؟ عشان أحدد حجم معجون السنان اللي هاجيبه معايا.

لم أفهم أنا وقطز أغلب الكلام الذي نطق به طماشة ونحن في طريقنا إلى القسم. ليس فقط لأن حركة فمه غريبة وشفتيه تتنافران كأنهما بابان مواربان يستحيل غلقهما، بل أيضًا لأن أغلب مصطلحاته كانت عجيبة ومخارج

حروفه تحتاج إلى طبيب تخاطب لتفسيرها! كانت استراتيجيتنا أن نوتره بقدر الإمكان،

نتركه جالسًا أمامنا من دون سجائر أو شاي وبلا توضيح لسبب استدعائه.

وعلى عكس المتوقع، ظل طماشة جالسا على كرسيه

مرتديًا نظارته الشمسية، ساكنا سكون نينجا محترف، لا يخرج منه صوت غير صوت نفسه المتحشرج.

بعد قرابة ساعة ونصف، تمكن الضجر مني أنا وقطز، فقررنا تغيير استراتيجيتنا المزرية. كنا على وشك أن نبدأ استجوابه، إلا أننا سمعنا شخيره واكتشفنا أنه لم يكن متماسكا، بل كان نائما.

ركل قطز قدم الكرسي الذي يجلس عليه طماشة فاستيقظ مستندا إلى المكتب، مما منعه من السقوط.

لم ينتفض أو يتفاجأ، بل تثاءب ثم نظر إلينا بعد أن أنهى قيلولته قائلا كأن شيئا لم يكن:

- أوامر أباشوات.

أمره قطز:

- اقلع النضارة يله!

خلع النظارة ووضعها في جيبه ثم قال:

- انتهى يا دولة. الكلام على إيه؟



أجبته:

- ميدو.

تفكر وهو يحك شاربه الذي بدا كأن طفلا رسمه له بقلم رصاص، ثم أرجع ظهره في مقعده ووضع ساقا فوق الأخرى قائلا:

عيل شنش ذكره أوطى من قعدة العتاولة اللي إحنا قاعدينها دي يا دولة.

نظرت بحدة إلى ساقه الموضوعة فوق الأخرى، ففهم غرضي وأنزلها باحترام.

- وإنت مدي بودرة بمليون وربع لعيل شنش ليه؟

باشا مفيش الكلام ده.

- أومال كنت مديه بودرة بكام؟

- أباشا أنا بتاع ميكانيكا مليش في البودرة والهربدة دي.

- يعني ميدو كان شغال لوحده؟

- شوف أباشا ميدو ده عيل حنقوءة ما أعتمدوش صبي في ورشتي، بس أنا برضك سندال وما أحكيش عن واحد إداني نفس من سيجارته. ما تغركش الماركات اللي لابسها، أنا ابن بلد واسأل عني شامبليون ذات نفسه.

- وما دام إنت سندال وصاحب صاحبك، رحت هددت رؤوف إنك هتخطف ابنه ليه؟

- إمتى ؟



- يوم الأربع في مكتبه، وعندنا شهود على الكلام ده.

- ربنا يزيد شهود الحكومة، بس هو رؤوف البكس بلغ عشان بقين طرشتهم؟

قال قطز:

- البقين دول تهديد يسجنك يا خفيف!

- يا دولة ده كلام قش في قش. اللي بيعمل ما بيقولش. أنا بس كنت متزرزر من الولا ميدو.

- ليه؟

- خلاف في الشغل أباشا. هو دماغه أمريكاني ومطيور وأنا نافوخي قبضاي ما يعرفش غير البلدي.

- يعني مش السبب إنه ضيع منك كيلو كوكايين بمليون جنيه وربع؟

- تاني أباشا؟! هو أنا لو أحتكم على مليون جنيه وربع ها قعد هنا؟ ده أنا أقلها أشتري جزيرة في المحيط البلطي وأستقل عن الدولة دي تمل!

شعرت بتخبط قطز من فرط مصطلحات طماشة العجيبة وجهله البين بها، فصاح فيه:

- ولااااا! ما تتعبناش! محيط بلطي إيه يا زفر! لؤي فين؟

- لا مؤاخذة يا دولة الاسم النص سوا ده ما عداش على راداري قبل كده.

تدخلت قبل أن يغرق قطز في دوامة حكايات طماشة:



- فين المكنة الصيني؟

- أدولة معلش، أنا صدري يحتوي أي تهمة تتهمني بيها الحكومة إلا إنها تتهمني في تجارة الصيني. أنا ما باشتغلش غير في الألماني والكوري.

- أو مال جبت منين المكنة الصيني اللي خطفت بيها لؤي؟

حك شاربه مجددًا ثم قال بعد تدبر:

- مش لاقط.

- طماشة! اخرج من دور المسطول ده واتكلم زي الرجالة بدل ما ورحمة أبويا أرميك في الحجز، وتجديد في تجديد لحد ما يبانلك صاحب. لاقط كده؟

- لاقط يا دولة.

- تعرف إيه عن خطف لؤي ابن أخو ميدو؟

تنهد بعمق ثم سحب السيجارة من خلف أذنه وأشار بها إلي مستئذنا ، فهززت رأسي ببطء موافقا.

أشعل السيجارة وأنهى ثلثها في نفسين متتابعين ثم قال:

- ميدو كان مطبق على مسلسل بين السرايات، شاف لما الحتة نجلاء بدر خطفت ابنها بنفسها وطلبت فدية من أخو جوزها عشان محتاجة فلوس، قام مباصيلي الفكرة، أنا أخطف لؤي وآخد الكاشات من أبوه.

- وإنت قلتله إيه؟



قلتله زميلي الغاغة دي مش غاغة طماشة. طماشة سيد العتاولة ما يخطفش عيال بتقول واء! وبعدين إنت يا ميدو اللي مديونلي، أنا إيه دخلني في هربدة شجرة عيلتكم دي! فضل يقولي كاني ومكاني ودكان الحلواني قلتله مش شاري انزل من على وداني. بس أباشا، هي دي الحكاية والرواية.

- يعني ميدو مديونلك أهو.

أباشا ميدو مديون لطوب الأرض. ده البكس سارق لابطوبي من تلات أيام وأنا كاشح الحوار من بدري ومستني أشوفه عشان أظبطه على السليم.

- إنت عندك لا بتوب؟

هو أنا قنفد يعني أباشا؟ طبعا عندي لابطوب وباتكلم كمان في التفاحة. ربك رزاق.

- وإنت آخر مرة شفت ميدو إمتى؟

- الأربع، قبل ما أروح أشد مع رؤوف الغتيت وأطلب فلوسي. وعلى فكرة هما ميتين خمسة وأربعين ألف جنيه وخمسين قرش بالتمام. لا مليون ولا غيره.

- كده تخشلها في حسبة ربع كيلو بودرة.

- بودرة إيه يا دولة؟!

- بودرة لبن نيدو يا روح أمك! أومال ليه ميدو بيقول للكل إنه متداين بمليون وربع؟



- راضع بكاسة أباشا، تلاقيه طلب الفدية دي عشان يسدد ديونه وينزه على حاله بالباقي. بس للأمانة والشرف، الواد ميدو ما يخطفش، آخره يلوّش ويهدد، لكن يخطف ويمارس الإجرام مفيش الكلام ده. قلبه خوخ مهري ما يحدفش زلط.

- أومال مين اللي خطف لؤي؟

- ثقة في الله رؤوف.

- جديدة دي.

- بس موزونة تشتري مني؟

- بيع.

دلوقت إنتو شكيتوا في بعد ما هددت رؤوف إني هاخطف ابنه لو ميدو ما سددش دينه.

- وبعدين؟

- ما الجملة واضحة أهي يا دولة. أنا بعد ما هددت رؤوف، لؤي اتخطف.

فقد قطز أعصابه فصاح وهو يضرب المكتب بكفيه:

- ولااااا! إنت هتلاعبنا على الشناكل؟ اخلص يا حيلتها وجيب اللي في عبك.

- أباشا رؤوف هو اللي خطف ابنه بعد ما أنا أوحيت له بالفكيرة تاني يوم خطف لؤي وتلاقيه سايبه عند قريب ولا حبيب عشان يعطل طلاقه من يمنى. ما هي مش صدفة إنها تطلب الطلاق قبل الغاغة دي بيومين.

ميدو اللي حاكيلك؟

- أنا سامع خناقهم أما كنت عندهم في البيت آخر مرة با طالب ميدو بدينه، وسمعت رؤوف بيعيط زي النسوان ليمنى عشان ما تسيبهوش

- رؤوف يعمل العوق ده؟

- أباشا رؤوف ده من قيمة سنة شلف لشارع شامبليون وقطع وشوش ست شبان بعاجة عشان عاكسوا الكراملاية اللي متجوزها. ما تغركش هيئة مدرس الجغرافيا اللي لابسها دي، ده راجل شلحف.

* * *

بعد رحيل طماشة بساعة، وصل إلينا رد من المعمل الجنائي يفيد بأن الحاسوب المحمول هو حقا ملك لطماشة، لأن كل حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي مفتوحة منه، وكذلك منشوراته الأخيرة وفقًا لتتبع عنوان الـ«IP» الخاص به كانت من بيته في شارع شامبليون بالفعل، بينما لم يتم التعامل على شبكات الإنترنت من هذا الحاسوب بأي شكل من منزل ميدو في شارع هدى شعراوي.

استُعمل الحاسوب خلال الساعات الاثنتين والسبعين الماضية في عمل واحد كتابة الورقة التي وجدتها في سترة ميدو الجلدية وطباعتها من طابعة البيت التي يستعملها رؤوف.

رؤوف الذي صار لغزا آخر في تلك القضية، والذي من الممكن أن يكون هدوؤه ورزانته ما هما إلا قناع مخادع، فلطالما نصحني جدي: «احذر الهادئين!».



استبدلت باسم طماشة اسم رؤوف في قائمتي الخاصة بالمشتبه بهم في خطف لؤي، ثم خرجت أنا وقطز من القسم متجهين إلى بيت آل رشيد مرة ثانية.

في الطريق، قال قطز:

- ما كانش صح إننا نخرج الواد ده من القسم.

- ما إحنا نفضناه وفتشنا الورشة، مفيش ممنوعات.

- ده مش معناه إنه مش ديلر!

- ما أنا زقيت عليه ممدوح من المكافحة، ده شغلهم هما. هنسيب العيل المخطوف ونركز مع الواد أبو بق بشنكل ده؟!

ما هي حاجة تغيظ برضو، ضيعنا معاه وقت على الفاضي.

إزاي على الفاضي؟! أبسط حاجة آدينا عرفنا إن مش هو اللي قتل ميدو. الواد بيتكلم كأن ميدو حي يرزق.

- في المقابل بعتنا لرؤوف.

- أنا مش شايف إن دي بعتة. ما يمكن رؤوف فعلا عمل الحركة دي عشان قصة طلاقه من يمنى.

- مش منطق يا نوح. إحنا كده بنضيع وقت.

- بدل ما تتشنج علي قولي نعمل إيه! لؤي ملوش أثر في أي مستشفى أو قسم على مستوى المديرية. مفيش حل غير إننا نمشي ورا كل خيط نلاقيه.

زفر قطز بضيق حتى وصلنا إلى المنزل فقال:

- معلش اتعصبت عليك، أنا بس جعان شوية.

- خلاص يا سيدي ها طفحك.

ذهبنا إلى عربة كبدة الكحلاوي أمام مدخل العمارة التي يسكنها آل رشيد لنشتري ساندويتشات الكبدة والسجق لكن لم يكن الحظ حليفنا، فلقد لمحنا صلاح وهو يخرج من العمارة.

تمكن قطز من أن يخبئ شنطة الساندويتشات سريعًا أسفل مقعده قبل أن يراها صلاح المتنطع ويطمع فيها.

طرق صلاح على زجاج نافذة السيارة بابتسامته السخيفة وروح ميدو تقف خلفه، ثم فتح باب السيارة الخلفي وجلس من دون استئذان خلف مقعد قطز وهو يقول مستمتعا بدفء السيارة

- آااه ، أما الدفا عفا والبرد لحاس القفا بصحيح.

دخل ميدو السيارة هو الآخر وجلس خلفي بينما قال صلاح:

- بتعمل إيه هنا منك له؟ وما بتردوش على مكالمتي من الصبح ليه؟

- جايين لرؤوف.

- ليه؟ فيه جديد؟

- هابقى أقولك. خليك دلوقت مع قطز، هاخد من رؤوف كلمتين وأرجعلكم.



- وأفضل هنا ليه؟ ما ننزل كلنا.

- براحتك، أنا كنت باقول كده عشان إحنا لسه جايبين كبدة وسجق وإنت شكلك ما أكلتش من الصبح.

نظر قطر إليَّ شزرًا، لكنه تفهم أنني لن أتمكن من إجراء أي تحقيق ذي قيمة في وجود مهرج مثل صلاح، فزفر مستسلما وهو يجر شنطة الساندويتشات من أسفل مقعده.

سال لعاب صلاح كالكلب المشرد، وراح يلتهم الساندويتشات، وسها عن نزولي من السيارة ولم يبال بتوجهي إلى بيت أنسابه من دونه.

***

طرقت الباب فسمعت صباح تقول قبل أن تفتحه:

- نسيت إيه يا حاحا ؟

فتحت الباب لتجدني أمامها، فانقبضت ملامحها وقالت بتوتر :

- خير ؟

- ناديلي رؤوف.

اصطحبتني إلى الصالون وهي تقول:

- هو فيه حاجة؟

- حاجات. إنتِ أكيد سمعت عن حكاية طلاقه هو ويمنى.



- لأ، أنا مش باتدخل في أي حاجة ما تخصنيش.

- ما يبانش عليكِ يعني يا صباح، خصوصًا لما فتشت في أوضة ميدو إمبارح وخبيت حاجته!

زاد ارتباكها وإذ بها تعجز عن إيجاد ما يصح قوله في هذا الموقف، فقالت وهي تخرج من الصالون:

- هاناديلك رؤوف.

نادته بنبرة حادة ومهزوزة، ثم سمعتهما يغمغمان في طرقة غرف النوم إلى أن اقترب رؤوف من الصالون وهو يسير باستقامة لافتة وعينين متيقظتين.

بعد الترحيب والأسئلة المعهودة حول مستجدات القضية وتصوره الساذج أننا قد ننهي الأمر في ليلة وضحاها، قلت له:

- إحنا وصلنا لطماشة ودورنا وراه فعلا، للأسف مفيش أي أثر للؤي الأثر الوحيد اللي لقيناه كان بيدين ميدو لوحده مش طماشة.

- يا فندم مستحيل ميدو ما يخططش وما ينفذش مصيبة زي دي لوحده. أنا عارف أخويا كويس. دي عملة طماشة.

- إحنا حاطيناه تحت المراقبة، وتتبعنا تلفونه في الفترة اللي فاتت ولقينا إنه من وقت خطف لؤي طماشة ما خرجش من شارعهم ولا تلفونه اتحرك للشارع اللي لؤي اتخطف منه.

يمكن بعت حد يعملها.



تتبعنا تلفونات أصحاب كل المكالمات اللي عملها الأسبوع اللي فات، ولا تلفون منها لقط شبكة من الشارع.

يعني إيه؟ ما هو لو مش ميدو ومش طماشة هيكون مين؟ أنا وأبويا ملناش خصوم في السوق يوصل بيهم الجبروت لكده حضرتك دلوقت بتدور ورا مين؟

فيه سيناريو اترسملي وحابب أعرف رأيك فيه، إنت ويمني بينكم مشاكل؟

- مش فاهم! ما أي اتنين متجوزين أكيد بينهم خلافات.

- خلافات تؤدي للطلاق؟

رمش ثلاث مرات متتالية ثم حك فمه، وقال بصوت خفيض وهو يقترب مني أكثر:

- إيه الغرض من السؤال؟

- الراجل لما يكون هيفقد حاجة عزيزة عليه ممكن يوصل بيه اليأس إنه يعمل أي تصرف على أمل إنه يمد في فترة بقائه مع الحاجة دي زي اللي عارف إن حالة والده ميؤوس منها وبيصر على إنه يفضل على أجهزة الإنعاش عشان يعيش لأطول وقت مع إنه ميت إكلينيكيا. خطف لؤي ده عمل أزمة قوّت علاقتك بيمنى أكتر، صح؟

- أنا لسه ما عرفتش الغرض من سؤالك!

- الغرض إنك تأكدلي إن خطف لؤي ده كان كارت أخير قررت ترميه عشان تنقذ جوازك.



أرجع رؤوف ظهره في مقعده وعقد ذراعيه، وقد تحولت ملامحه من الهدوء الرزين إلى شيء من التوحش، ومع ذلك استأنفت حديثي:

- مين يعرف إن يمنى رايحة تجيب ابنها مشي على رجليها من الشارع ده بالذات قبل ميعاد خروجه المعتاد من الحضانة ؟

مين حافظ خط سيرها وعارف إن ده الشارع الوحيد المناسب لعملية الخطف دي؟ مين مستفيد من الخطف ما دام مفيش فدية اتطلبت؟

- مفيش فدية إزاي؟ أومال إيه الورقة اللي إنت لقيتها في جيب سترة ميدو دي؟

- يعني إنت عارف؟

- أول حاجة عملتها لما لؤي اتخطف ولقيت ميدو سافر فجأة بدون مقدمات وتلفونه مقفول، إني دخلت فتشت أوضته لحد ما لقيت الورقة دي. البهيم كان سايبها تحت اللابتوب اللي سرقه من طماشة عشان يبيعه ويجيب بيه زفت يشمه.

- إنت اللي خبيتها ورا البوستر؟

- بوستر؟ إنت مش لقيت الورقة في جيب السترة؟

- ده كان قبل ما صباح تخرجنا من الأوضة عشان نشرب الشاي

- أنا اللي خبيتها في جيب السترة عشان بابا لو كان لمحها وعرف إن ميدو بيلاعبنا، ما كانش هيحصل طيب.



- أومال مين اللي حطها ورا البوستر؟

- مش مهتم أعرف.

ظل كل منا يحدق إلى الآخر على أمل أن يكتشف أحدنا خداع الآخر، لكن رؤوف كسر الصمت بأن قال بصوت هادئ يتضاد مع نظراته الحادة:

- أنا مش مراهق بريالة عشان أغامر بابني المريض عشان أحل خناقة مع مراتي

يا نوح. أنا مش قليل الحيلة أوي كده.

- ده ما يمنعش إنه ممكن تـ...

- حضرتك مشكورًا حققت مع العيلة كلها وكدرتنا أكثر ما إحنا متكدرين وبرضو ما لقيتش لؤي، كل اللي حضرتك وصلتله هو شوية تكهنات وشكوك في غير محلها. فشكرًا لحد كده، واعتبر صباح ما اتسحبتش من لسانها وكلمت صلاح الجهبذ. أنا هاعرف ألاقي ابني بطريقتي.

نهض عن مقعده واقترب مني مقدمًا يده نحوي لمصافحتي حتى أرحل:

- ما نستغناش!

***

ضاع اليوم عبثًا، فرؤوف على حق، نحن لم نصل إلى طرف أي خيط.

في طريقنا من شارع هدى شعراوي وحتى القسم، لم أقص على صلاح أيا مما صار مع رؤوف، وقد كان منشغلاً بالتهام الساندويتشات على أي حال فلم يبال كثيرًا.



أكلت ثلاثة ساندويتشات في الطريق، وحاولت تجاهل جلوس ميدو خلفي وهو يطرقع أصابعه ويصفر، ويدندن بصوت تقشعر له الأبدان على لحن أغنية تامر حسني المذاعة على الراديو. كان صوته النشاز يثير قشعريرتي فغيرت المحطة، فأخذ يسبني ويلعن قلة المزاج التي ٦ تلاحقه منذ أن مات.

وصلنا إلى القسم، وبمجرد أن نزل صلاح من السيارة، رافقه ميدو كظله.

شكرت الله على أن ميدو لا يبالي بوجودي ولا بتتبعي، فقد قررت منذ خمسة أشهر بعد أن طاردتني روح فتون وكادت تقتلني للمرة الثانية، أن أعتزل التواصل مع أرواح الموتى، إلى درجة أنني تخليت عن السير بليمونة في جيبي كي لا أجذب أي روح نحوي.

جلست أنا وقطز إلى مكتبي ومعي باقي الساندويتشات.

حاول كلانا أن يشغل نفسه عن فشله الذريع اليوم بالاستمتاع بالطعام في صمت، وقد نجحت ساندويتشات الكحلاوي في ذلك. فبمجرد أن أخذت قضمة من أحدها، ذاب بفمي مذاق خبز الفينو الدافئ بالطحينة مع السجق المتبل الساخن وحلقات الفلفل الحار، إلى أن اقتحم صلاح علينا المكتب بطريقته الهمجية المعتادة. دخل صائحا يتبعه ميدو.

زفر قطز وابتلع ما يمضغه قائلا:

- عايز إيه؟

جر كرسيا من عند مكتب قطز وجلس أمامي بالقرب من الساندويتشات قائلا:

- إنت اتجننت يا لمونة؟! بتقول لرؤوف إن هو اللي خطف ابنه؟



حط على طعامي كالنسور القمامة، وإذ به يفعص الساندويتشات ويفتحها بحثا عن أكثرها امتلاء باللحم حتى وجد فريسته والتهمها.

انشغل قطز بمتابعة آكل الأخضر واليابس، بينما راقبت ميدو يقف في منتصف الغرفة يراقب تفاصيلها ويتلفت حول نفسه.

حرك أنفه يمينا ويسارا متبعا رائحة طعامنا التي قادته إلى الوقوف عند مكتبي خلف صلاح ثم قال لنفسه: «أنا رجعت أشم تاني ولا إيه؟».

تعمدت ألا تلتقي نظراتنا فحاولت إخراجه من نطاق بصري، وشغلت نفسي بالنظر إلى قطز وهو يقول لصلاح:

كل ساندويتش هتطفحه ها دفعك تمنه!

- على الجزمة بكام الرغيف يعني؟

بتلاتة جنيه ونص.

ترك باقي الساندويتش وقال وفمه مليء بالطعام:

- ما تاخدنيش في دوكة، إزاي تتهموا رؤوف اتهام خايب زي ده؟

وضعت باقي الساندويتش الذي لمس فمه في سلة المهملات، ثم قلت:

- لما نلاقي صباع بيشاور على حد، لازم نحقق معاه.

- ولا مؤاخذة مين اللي صباعه شاور على رؤوف ابن الأصول اللي العيبة ما بتطلعش من بقه؟



- طماشة.

انتبه ميدو لكلامي ثم أخذ يسب ويلعن طماشة في سره، بينما ضحك صلاح وقال:

بقى طماشة الشمام يبعتكم البعثة دي؟ والله خسارة فيكم كارنيه الشرطة!

- طب ما تشجينا إنت يا بيه، دول برضو قرايبك وإنت أدرى بيهم.

- عيب يا لمونة، ده إنت أول دفعتك. كل ده ومش هارش مين الخاطف؟

حاول ميدو أن يأخذ ساندويتش كبدة من أمامي.

كم مرة يجب أن يفشل ذلك الأحمق في لمس أي شيء حتى يدرك أن الأرواح لا قدرة لها على لمس أي شيء مادي!

- طب ما تغششني.

- مين جيبه مخروم مفيهوش قرشين؟ مين الديانة هددوا أخوه؟ مين اختفى بعد خطف لؤي بيوم ومش لاقيله طريق؟ مين رفيع وبيعرف يسوق موتوسيكلات وعارف طريق حضانة الواد وإنه اليوم ده هيروح بدري عن ميعاده؟

- مين حبيب بابا؟

قالها ميدو ساخرًا من صلاح بعدما فشل في انتشال الساندويتش.

توقف صلاح عن الحديث للحظة جعلتني أشك في أنه سمع تعليق ميدو، لكن حين أخرج من جيبه علبة سجائره وولاعته وراح يشعل سيجارته

بطريقته الدرامية المعهودة، فهمت أن ذلك جزء من عشقه لافتعال جو رخيص من التشويق والغموض لا يتناسبان مع لغده.

استطرد بعدما نفث دخانه ببطء كأنه على وشك أن يكشف لنا لغز مقتل البلاك داليا:

- ميدو الفاشل!

علق ميدو:

- ما بقاش فاضل غير مدير أمن البروطات اللي يتكلم عن فشلي!

تماسكت حتى لا أبتسم على تعليق ميدو الساخر، ثم سألت صلاح:

- وبعدين؟

- ولا قبلين هاجيب ميدو من تحت طقاطيق الأرض وأرقعه قفا ميري يخليه يقر بكل حاجة.

قال ميدو:

- ترقع مين قفا ميري يا أبو خمسين ونص في المية إنت!

انفعل ميدو، وإذ بأعذب مشهد في حياتي يحدث: صفع ميدو صلاح على قفاه.

بالطبع مرت يده عبر قفاه من دون أن يصدر صوت طرقعة الصفع المعهود، لكن هذا لا يعني أن تلك الصفعة لم تؤذ صلاح.



أعرف شعور أن تلمسك روح ميت؛ كهرباء عنيفة تسري في بدنك كله، تنتصب كل شعرة خلقها الله في جسدك، يخفق قلبك بجنون، تثقل أنفاسك وتبرد أطرافك ثم تنتفض في مكانك كأنك على وشك الدخول في نوبة صرع.

هذا ما اختبره صلاح لأول مرة في حياته، وكان من حسن حظي وعوض الله لي أن أشهد تلك اللحظة المجيدة.

انتفض من مقعده وصرخ صرخة رفيعة بطبقة صوت لم أسمعها منه سابقا، ثم سقط أرضًا على مؤخرته.

كتمت ضحكتي بصعوبة بينما علق قطز:

- وده من إيه ده؟

أدرك ميدو قوته فابتسم كطفل حصل على لعبة حلم بها أيامًا وليالي.

بابتسامة واسعة، ركل ميدو صلاح فعبرت قدمه من بطنه وضربت الكهرباء كرشه المترهلة فانتفض صارخا مجددا.

وقف ميدو يضحك، بينما تلفت صلاح حوله وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم. الأوضة دي مش تمام فيه حاجة غلط.

بادلني قطز نظرات التساؤل، بينما ساعد صلاح على النهوض بصعوبة، فقلت له:



- لا غلط ولا حاجة إنت تلاقي كهربة مخك زادت من كتر الرغي في التلفون. روح استحمى بميه سخنة واشرب عصير ليمون يهدي أعصابك. كتر من الليمون الفترة دي.

لمح قطز ابتسامتي الخبيثة، بينما خرج صلاح مرتعشًا وبقي ميدو في الغرفة يقهقه.

همس قطز إلي مرتابًا:

- ميدو هنا؟

لم يعد هناك مجال للشك، طنط نجوى أسقطت قطز بالفعل على رأسه صغيرًا.

نظر ميدو إليَّ واقترب من المكتب حتى صار يكاتف قطز ثم سألني:

- يعني أنا مش متهيألي، إنت فعلا شايفني يا لورد؟

نظرت إلى قطز متجنبا ميدو تماما، لكنه وضع يده على كتف صديقي وهو يقول له بابتسامة:

- وإنت كمان شايفني زيه؟

انتفض قطز هو الآخر فور أن لمسته أصابع ميدو الكهربائية فهوى على ركبتيه مرتعشا.

قلت له غاضبا:

- أحسن! والله تستاهل عشان غبي!



ضحك ميدو الذي رأى في كهربة البشر لعبة مسلية، وهم أن يلمس قطز مرة أخرى فضربت المكتب بكفي وصحت فيه:

- ولاااا! اثبت مكانك!

- أو مال كارفني ليه من الصبح يا لورد؟ ده أنا حتى جاي أساعد.

- تساعد مين يله كنت نفعت نفسك!

- بشوقك يا لورد كلها بتلف وتحتاج ميدو في الآخر.

وضع يديه في جيببه ثم أضاف:

- هاجيلك ثاني لما تكون رايق عندي لك حكاية.

أخذ يصفر أغنية تامر حسني في طريق خروجه من مكتبي، ثم سمعت صريخ صلاح مجددًا، فخمنت أن ميدو عاود الاستلذاذ بكهربة نسيبه مرة أخرى.

أيمكن أن ألومه؟



٦

أقلب بين قنوات التلفزيون عسى أن أجد أي شيء يصلح كضوضاء بيضاء في خلفية الصمت الكتيب المخيم علي في غرفة المعيشة.

انتهت جولتي عند قناة «سبيستون»، حيث تذاع حلقة للمحقق كونان، فتركت الريموت وعقدت ذراعي وتابعتها بتمعن.

خلت أحداث الحلقة من عناصر المفاجأة بالنسبة إلي لأنني أعرف ترتيبها وأحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب. ومع ذلك اندمجت مع اللغز، وتحمست للحظة إعلان كونان عن مكان الجثة الذي سيغير مجرى التحقيق كليا إلى درجة أنني تضايقت حين سمعت إشعار رسائل الواتساب يرن بشكل هستيري وسببت المرسل قبل أن أعرف هويته.

كانت دليلة هي مرسلة فيضان الرسائل هذا.

إحدى عشرة رسالة في بضع ثوان، جميعها إعلانات شقق للإيجار في حي المعادي.



هممت أن أراسلها لكنها لم تمهلني، وجدتها تتصل بي فأخذت نفسًا عميقا وأجبت على هاتفي مضطرًا.

افتتحت مكالمتنا بتشكيلة من الأسئلة المبتذلة عديمة النفع التي اتفق مجتمعنا المتحضر بطريقة ما على أن يبتدئ بها حواراته: كيف حالك؟ كيف كان يومك؟ أكلت؟ نمت جيدًا؟ ما الجديد في عملك؟ ماذا تشاهد؟

كأي جنتلمان، أجبت عن الأسئلة كلها، مضيفًا أكبر قدر ممكن من التفاصيل حتى لا تعتقد أنني ملول أو أبخل عليها ببيث تذاع حنا بوقتي، ثم طرحت عليها الأسئلة نفسها فجارت تمثيليتنا الهزلية، وروت لي عن مدى استيائها لأن المايسترو اختارها لتعزف فقرة صولو أمام فرقة أوبرا باريس.

- كنت متخيل إن حاجة زي دي هتبسطك.

- أنا ما كنتش اختياره الأول هو فاجئني النهارده عشان اللي كانت هتعزف عملت حادثة وإيدها اتصابت. دلوقت أنا مطلوب مني أجهز في أقل من أسبوع.

- معلش يا حبيبتي. مفيش شغل مفيهوش مفاجآت.

- إنت مش فاهم الموضوع بقى أوفر، وإيه المقابل؟

هاموت قبل ما حد يعرفني. في بلد تانية، كان زماني نجمة. أنا بجد بدأت أفكر أسيب العزف وأشوفلي أى حاجة تانية ألحق أعملها يمكن الناس تفتكر اسمي.

- مش حاسة إنك مؤخرًا بدأت تفكري في تغيير حاجات كتيرة في حياتك؟



- الحياة متغيرة يا نوح، واللى هيفضل ثابت مكانه هينقرض زي الديناصورات.

- إيه الكلام الكبير ده؟

- سيبك من الحوار ده دلوقت.

تنهدت وقالت بنبرة لا تستعملها إلا حين تنوي أن تطلب مني طلبا سخيفا سيثير حفيظتي:

- باقولك يا بيبي، أنا بعتلك على الواتساب شقق في المعادي للإيجار.

- شفتها.

- طب وإيه رأيك؟

- مش فاهم إيه المطلوب مني.

- هافهمك. دلوقت إنت مش عايز تبيع شقة باباك. حقك طبعا يعني. وفي نفس الوقت مفيش ميزانية نشتري شقة في المعادي، فأنا فكرت ولقيت إن أنسب حل نأجر شقة مؤقتا لحد ما ربنا يسهل و...

- بقى ده اللي وصلتيله بعد ما فكرتِ؟ عايزاني أأجر وأنا عندي ملك؟

- أنا باحاول ألاقي أرض وسط يا نوح. عايزة أسكن في المنطقة اللي طول حياتي متربية فيها وأفضل جنب مامي وليلو، وفي نفس الوقت مش عايزة أكلفك.

- يعني لما نص مرتبي يروح كل شهر في إيجار شقة مش ملكي، ده مش تكلفة؟



- طب أنا عندي فكرة أحسن، ممكن ندفع مقدم شقة وبدل ما ندفع إيجار ندفع أقساط.

وعلينا من ده بإيه يا دليلة؟!

- إنت كده بتقفلهالي من كل ناحية.

- أنا سيبتك تختاري كل حاجة ليها علاقة بجوازنا، ميعاد وتفاصيل الخطوبة، والفرح وشهر العسل والعفش. الحاجة الوحيدة اللي اخترتها هي شقة أبويا. حتى دي كمان مستكتراها علي؟

- إنت بتتعصب علي ليه دلوقت؟

- وهو قفشك في المعادي فجأة بدون مبرر منطقي ده ما يعصبش!

رن هاتفي في أثناء المكالمة لأجد رقم جدتي تحاول أن تتصل بي عن طريق الفيديو، بينما استمرت دليلة في الصياح، تلقى باتهامات العند والتعصب والتشبث بالرأي يمينا ويسارًا، فزفرت قائلا :

- دليلة، هاكلمك تاني.

- هتفضل لحد إمتى تهرب من كل نقاش مهم بينا؟

- بلاش أفورة. اقفلي عشان تيتة بتتصل.

- والله؟! ماشي يا نوح براحتك!

ثم أغلقت الخط.



* * *

رددت على مكالمة جدتي التي نجحت أخيرًا في تعلم إجراء المكالمات عبر الفيديو.

كانت كاميرا الهاتف قريبة جدا من وجهها إلى درجة أنني لم أر في الكادر سوى جبينها وشعرها الذي تأخرت في صبغه باللون الأحمر الكرزي حتى ابيضت جذوره.

- إزيك يا سونة؟

صاحت كما يصيح المغتربون في السنترال، ومع ذلك بالكاد وصل إلي صوتها بين هدير رياح البحر وارتطام أمواجه وهي تقول:

- نوح يا حبيبي، سامعني؟

- آه يا سونة سامعك.

- شايف يا حبيبي منظر البحر؟ أنا قلت لازم أفرجك معايا على الغروب الساحر ده.

حركت الهاتف يمينا ويسارًا، وأدركت أنها لا تعي أن الكاميرا الأمامية هي التي تعمل وليست الكاميرا الخلفية المواجهة للبحر.

ارتفع صفير الرياح وتقطعت شبكة الاتصال فلم أعد ألتقط منها سوى بضع كلمات منفصلة:

- منتهى الجمال... لازم تيجي.



- يا تيتة، إنت فاتحة الـ (Front Camera».

- الشروق كمان... هابقى أتصل بيك... الساعة كام..... كلها يومين....

- الشبكة وحشة يا تيتة مش سامعك الجو برد عليك يا حبيبتي. إنت متقلة طيب؟

- سبحان الله على الجمال.

فقدت الأمل في أن تسمعني، فبقيت أشاهد جبينها والجزء الأيمن من وجه صديقتها، وأسمع مديحها وانبهارها بجمال الغروب على بحر الإسكندرية حتى انتهت المكالمة فجأة كما بدأت فجأة. لا أدري إن كان ذلك بسبب انقطاع الإنترنت أو انتهاء شحن هاتفها أو أنها ضغطت على زر الغلق بالخطأ، وربما لا تدري أن المكالمة انتهت، وما زالت تتحدث ظنا منها أنني أسمعها.

* * *

أخذت نفسًا عميقا، واتصلت بدليلة مجددًا، لكني وجدت هاتفها مغلقا.

فكرت: أي جرم ارتكبته حتى تقرر معاقبتي؟! وزاد غضبي بمجرد أن سمعت خاتمة حلقة كونان بصوت رشا رزق الذي يشعرني بالحنين إلى الطفولة:

«يكتشف الغامض والمثير، يستنتج بالعقل الكثير، كونان الرجل الصغير، يسعى دائما».

- اللعنة، فاتتني النهاية!



استسلمت لسخافة حظي، ودندنت مع الأغنية وأنا أنهض عن الأريكة متجها إلى الشرفة حيث يقف قطز.

لمحت ضوء هاتفه، ومع اقترابي لاحظت أنه يقلب في حساب آسيا على الإنستجرام كالعادة، يفتح صور حفل توقيع لها ويقرأ التعليقات باهتمام.

كان مندمجًا إلى درجة أنه لم يلحظ صرير باب الشرفة الزجاجى وأنا أفتحه لأخطو بجواره وأستند إلى السور، فاضطررت إلى أن ألمس ذراعه وأناديه حتى ينتبه لي.

انتفض فأسقط كوب الكاكاو الذي برده صقيع مساء ديسمبر فهوى وتهشم أرضًا.

- اللعنة، كان ذلك كوبي المفضل!

- لا مؤاخذة.

لململت أجزاء الكوب بحرص ووضعتها جانبًا على الطاولة، ومسحت بقايا الكاكاو بالمناديل وأنا أقول:

- اللي واخد عقلك.

- ولا حاجة، كنت بافكر في القضية. إحنا لوحدنا صح؟

- ميدو مش معانا. ولولا ذكاء معاليك ماكانش عرف إني شايفه وفضل لازقلي.

- يا سيدي زلة لسان، وبعدين مصلحة، أهو دلوقت تقدر تفهم منه مين اللي قتله.



- كان فيه وخلص كفاية اللي نابني من فتون.

بس كده القضية هتاخد مننا وقت أكتر.

- طب ما تاخد وقتها يا قطز و ....

- الكلام ده لما نبقى بنحقق في قضية قتل، مش في قضية طفل عايش وحياته مرهونة بينا.

- حتى لو كلمته. واحد خطف ابن أخوه عشان يجبره يدفع ديونه، فكرك يعني ضميره هيأنبه ويقولنا مخبيه فين؟

- مش بتقول إن روحه بتحوم حواليك؟ أكيد محتاج منك حاجة فكده هتقدر تساومه عشان يعرفنا هو وشريكه في الجريمة مخبيين لؤي فين.

- طب ما نسيبنا من ميدو ونشوف مين شريكه في الجريمة.

- هنعرفه إزاي؟

- إيه الدليل الملموس الوحيد ضد ميدو؟

- ورقة الفدية اللي لقيتها في السترة بتاعته.

- مين بقى اللي كان حريص إنه يخبي الورقة دي أول ما خرجنا من الأوضة ورا البوستر عشان ما تقعش في إيدنا؟

أطال التفكير فيما طرحته فعاجلته قائلا:

- صباح .



- بأمارة إيه؟

- فيه كام حاجة كده لو اتأكدنا منهم يبقى السيناريو اللي في دماغي مظبوط والقضية دي كلها خلصت. بس عايزك تساعدني. أنا مش متعود عليك كده.

- ولا أنا متعود على نفسي كده، ما بقيتش قادر أمثل على حد إني كويس!

- تعال نغير جو ونعمل أي حاجة تحبها.

- كل حاجة باحبها عملتها معاها، فأي حاجة هاعملها دلوقت هتفكرني بيها!

- يبقى نعمل حاجات جديدة.

- مفيش حاجة هيبقالها طعم من غيرها.

راح يتأمل شفق الغروب بمرارة، ثم قال:

- أنا حبيتها بقلبي كله، دلوقت هي مشيت بس المشاعر لسه موجودة ومش عارف أعمل إيه بطاقة الحب اللي جوايا ناحيتها. أنا حاسس إني ....

زفر بضيق ثم قال:

- فاكر لما رحنا شرم الشيخ ولعبنا مع واد كان جايب طيارة ورق؟

يااه يا قطز! ده إحنا كنا في أولى ولا تانية ابتدائي وقتها.

اتسحلنا في اللعب معاه على الشط لحد ما تهنا وفضلنا ندور بين الشماسي عشان نلاقي الشمسية الحمرا اللي أبوك أجرهالنا، ده إحساسي دلوقت، عيل تايه على الشط بيدور على شمسية أهله وسط الأغراب.



اللعنة عليك وعلى غبائك يا آسيا! ربت على كتفه وناولته سيجارة أشعلها ممتنا. وهكذا من دون كلام منطوق شاركته الضيق المطبق على أنفاسه.

استغللت صمتنا في التفكير في شتى الطرق الممكنة حتى أزيح عن قلب خليل عمري حزنه، إلى أن بدأت أهتدي إلى الطريقة المثلى للترويح عنه. لكن رن هاتف قطز باسم صلاح.

زفر كلانا، ثم أجاب قطز:

- يا نعم!

- أنصت لصلاح بانتباه شديد وسأله بضعة أسئلة غامضة، وتبينت علامات الدهشة ثم الصدمة فالحزن على وجه قطز إلى أن ختم المكالمة قائلا:

- كويس إنك معاهم. إحنا جايينلك حالا. البقاء لله.

أنهى المكالمة ومعها سيجارته فسألته:

- وصلهم خبر موت ميدو؟

- لأ، وصلتهم جثة لؤي



٧

ما حدث لهذا الرضيع ظلم بين، لكن مرارة الواقع لم تكن صادمة بالنسبة إلي، فللعالم فم فاغر يبتلع الأنام من دون حساب، وأنياب قاسية تقصم عظامهم من دون تفرقة بين آثم وبريء.

حين أخبرني قطز بأنهم وجدوا جثة لؤي قبيل صلاة المغرب، توقعت أنه يعني بذلك أن الشرطة عثرت عليه في مكان مجهول؛ في مكب نفايات أو في شارع مهجور، لكن حقيقة الأمر أن صباح هي التي وجدت جثة ابن سلفتها داخل المنزل، وبالتحديد في غرفة نوم والديه.

لم يكن العجيب أنها وجدت جثة الصغير في غرفة والديه فحسب، بل بين ذراعي أمه الجالسة أرضًا تسند ظهرها إلى خزانة الملابس في حالة من الصدمة. طوقنا محيط العمارة بالشريط الأمني، ومنعنا الدخول والخروج منها حتى ينتهي فريق المعمل الجنائي بقيادة الدكتور حسني المستكاوي من تمشيطها.

أتيحت لي ولقطز فرصة تعيسة لإلقاء نظرة على جثة لؤي قبل أن توضع في كيس الجثث الأسود الجلدي لتنقل إلى المشرحة لإتمام فحص الطب الشرعي لها.



بدا كطفل جهزته أمه للعيد، شعره مصفف بعناية، وثيابه بيضاء ناصعة، وتفوح منه رائحة الصابون، إلا أن جلبابه الأبيض الفضفاض لم يضف إليه البهجة المنشودة، بل جعل بشرته الناعمة التي تنتشر عليها بقع وردية، أكثر شحوبًا، وحجمه أكثر ضالة كأنه دمية خزفية.

بمزيد من التدقيق، تراءى لي أن هذا الصغير لم يمت ميتة هادئة في أثناء نومه، فهناك آثار كدمات زرقاء حول أنفه وفمه، بالإضافة إلى أن كفيه الصغيرتين مغلقتان غلقًا محكمًا، كما أن عروقه الصغيرة الزرقاء بارزة أسفل جلده، مما يعني أنه كان يتشنج ويصرخ ألما.

وقف حسني بجوارنا يتأمل الطفل قائلا

- ربنا يجعله شفيع لأهله.

سأله قطز:

- شفت حالة أمه عاملة إزاي؟

- حط نفسك مكانها، عيلة عندها عشرين سنة لقت ابنها مقتول في حضنها.

- سألته:

- مقتول!

- غالبا مش شايف وشه وشفايفه زرق إزاي الولد ده مسموم أو مخنوق.

- تقدر تعرف سبب الوفاة بشكل مبدئي على الأقل؟

- لازم أعمل تحليل كامل عشان أديك معلومة موثوق منها.

- طب فيه حاجة بالفحص المبدئي تحددلنا نوع السم اللي لؤي ممكن يكون اتسمم بيه؟

ألقى حسني نظرة سريعة على لؤي داخل كيس الموتى وفتح عيني الصغير ثم قال:

- علامات الخنق والتسمم شبه بعض أوي عند الأطفال في السن ده، لازم تحليل كامل.

- طب على الأقل فيه احتمالية إنه اتسمم بعنب التعلب مثلا؟

- عنب التعلب فيه مادة سيانيد الهيدروجين، الأوفردوز منها بيسبب زرقان في الشفايف وبقع حمرا على الجلد زي اللي عنده، بس ده مجرد تخمين أولي، مش نتيجة معتمدة.

- مفهوم. عايز منك خدمة بسيطة، الكلام ده ما يوصلش لصلاح، وأي نتايج تخرج من المعمل تعدي علي أنا وقطز الأول. اتفقنا؟

- والله يا نوح ما هتفرق، حتى لو اديته التقرير ما هيفهم منه حاجة، أنا بدأت أشك إنه بيعرف يفك الخط أصلا.

* * *

لم تكن يمنى في حالة تسمح بالتحدث معها بأي شكل من الأشكال.

كانت في صحبة الحاج رشيد فوق السطح، لديها جرح حديث في شفتيها، وتوجد علامات حمراء على وجنتيها البضتين من أثر صفع عنيف.



وجدناها مضطجعة على سرير غرفته في حالة من الصدمة، تحدق إلى السقف من دون أن تنطق بحرف، بينما يضع الحاج يده فوق رأسها ويقرأ عليها القرآن حتى تهدأ.

بمجرد أن لمحنا له برغبتنا في التعرف على ما حدث ليمنى، زجرنا وطردنا من الغرفة، فكان الحل الوحيد هو انتظارها حتى تستفيق من صدمتها ونتمكن من استجوابها.

استغللنا ذلك الوقت في تفقد غرفة نوم يمنى التي طوقت بشريط أمني مؤقت باعتبارها مسرح جريمة حتى التأكد من سبب وفاة لؤي.

كان فريق المعمل الجنائي يبحث عن أدلة ويرفع البصمات، لكن مما لا شك فيه، ومن دون الحاجة إلى أي معمل جنائي، أنه قد دار صراع عنيف في هذه الغرفة.

طرفا السجادة البرتقالية الباهتة كانا مثنيين، والملاءة ساقطة عن السرير كأن شخصًا سُحل عن الفراش، وزجاجة عطر مكسورة بجوار طاولة التزيين التيانقلب مقعدها المنخفض رأسًا على عقب بجوار خدادية،

وآخر ما لفت انتباهي هو مرآة درفة خزانة الملابس المشروخة وعليها بقعة دم ضئيلة بالكاد ترى.

أشرت إلى حسني حتى يوجه رجاله لفحص تلك البقعة. وكره تعليقي على عمله كالعادة، وبكياسة طلب منا الخروج حتى نترك مساحة لفريقه ليعمل بهدوء.

وقفت في صالة الشقة أتخيل ما صار.



يمنى اكتشفت بطريقة ما أن صباح هي التي اختطفت ابنها، وتمكنت من استعادته بنفسها، ثم واجهتها في الغرفة، وإذ بعراك يدور بينهما.

بالطبع ستكون لصباح، فارعة القامة قوية البنية، اليد العليا على يمنى الضئيلة الهزيلة. وبعد قليل من العراك والصفع، رطمت صباح رأس يمنى في المرآة، ففقدت يمنى وعيها. في حموة ذلك الموقف، سممت صباح لؤي الصغير، واستعادت يمنى وعيها فوجدت ابنها مقتولا أمامها من دون شهود.

قطع حبل أفكاري صوت نواح قادم من المطبخ، فاتبعته أنا وقطز لنجد صباح تعد الشاي للضباط وفريق المعمل الجنائي وهي مغرقة في البكاء.

إنها دموع الندم!

- موقف صعب، مش كده؟

انتبهت لكلامي، فالتفتت إلينا وهي تمسح دموعها بكم بلوزتها، ثم قالت:

- ربنا ما يكتبها عليك!

- اكتشفت الجثة لوحدك؟

هزت رأسها إيجابا وهي ترص الأكواب على الصينية.

- إزاي؟

- كنت لسه راجعة من بره شفت نور أوضة يمنى منور فاستغربت...

- ليه؟



- عشان هي خرجت من الصبح وباب أوضتها كان مقفول ونورها مطفي.

- كانت فين؟

- مش عارفة. من ساعة ما لؤي اتخطف وهي بتخرج مرتين في اليوم قبل ما رؤوف يرجع. بس النهارده رؤوف حاول يتصل عليها كتير وهي ما ردتش، قام متصل علي فسبت اللي باعمله ورجعت البيت أدور عليها. خفت لتكون هي كمان اتخطفت.

- حد غيرك لاحظ غيابها المستمر كل يوم؟

- لأ، وأنا ما لفتش نظرهم لحاجة.

- إيه اللي حصل لما دخلت عليها الأوضة؟

- أنا كنت داخلة أسألها كانت فين، لقيتها قاعدة على الأرض ساندة على الدولاب وراسها متعورة ودموعها ناشفة على خدها، ولؤي نايم في حضنها ....

زاد بكاؤها حتى خرج منها صوت مبحوح يشبه شحذ السكاكين، واصطكت أسنانها بشدة. سحبت منديلا من فوق رخامة المطبخ لتطرد ما في أنفها ثم استطردت

- أول ما شفته ما حسيتش بنفسي غير وأنا بارقع بالصوت. وشه كان مزرق. منظره كان يقبض القلب. الله يرحمه.

أنهت حديثها وظلت يداها ترتعشان وهي تضع السكر في الأكواب. تأملت ارتباكها وخوفها البين فسألتها بلا تمهيد:



- ميدو فين يا صباح؟

- مش عارفة. ومحدش عايز يساعدني. رؤوف وبابا رشيد مشغولين بحكاية لؤي وصلاح ما صدق إن ميدو مش موجود أصلا. أنا سألت عليه كل اللي يعرفوه، محدش شافه من يوم الأربع!

- مين المستفيد من اختفائه؟

- محدش. حتى اللي هو متداين ليهم مش هيستفيدوا حاجة من اختفائه. أنا قلبي مش متطمن، حاسة إن ميدو في مصيبة! أنا عارفة إن الوقت مش مناسب، بس ينفع تساعدوني ألاقيه؟

- نساعدك ليه؟ نسيت دفنتيه فين ولا إيه؟

سقطت السكرية البورسلين من يدها وتناثرت أجزاؤها على الأرض. اتسعت حدقتاها، وراقبت صدرها يعلو ويهبط بينما تتسارع أنفاسها من دون أن تجد ما تقوله.

استغللت الفرصة قائلا:

- طول الوقت وأنا متخيل إن إنت وميدو كنتوا شركاء في خطف لؤي، بس دلوقت لما قلبتها في دماغي، من الواضح إن إنت لوحدك اللي عملت كل ده. استغليت توقيت تهديد طماشة لرؤوف وخطفت لؤي وكتبت ورقة الفدية من على اللابتوب اللي سرقه من طماشة. إنت اللي خبيت ورقة الفدية اللي كانت في جيب السترة وحطيتيها ورا البوستر لما جينا نفتش في الأوضة. ميدو بطريقة ما كشف خطتك فتخلصت منه.



ظلت دموعها تنهمر من دون كلام وهي تنصت لتفسيري إلى أن دخل صلاح المطبخ قائلا:

- كل ده بتعملي شاي يا ....

نظر إلى تعبيرات الصدمة على وجه أخته، ثم نظر إلينا وقال:

- فيه إيه؟ متجمعين هنا ليه؟

- باحاول أعرف من أختك دفنت جوزها فين؟ نظر صلاح إلينا ثم إلى شقيقته قائلا:

- إيه الكلام ده؟!

أجابته صباح بصوت مخنوق من تراكم دموعها:

- ميدو ميدو مات؟! جوزي مات وإنت مخبي عني؟!

راحت تشير نحوي وهي تكرر الكلمات نفسها حتى تباطأت أنفاسها وزاغت عيناها وارتخت أوصالها وفقدت وعيها، وكادت تسقط أرضًا لولا أن صلاح التقطها وحملها وهو يصرخ طالبا العون.

***

لا أدري أيهم أزعجني أكثر، صوت صياح صلاح المذعور على أخته، أم كونه أفرغ زجاجة عطرها حتى تستفيق هي وندخل نحن في غيبوبة من قبح أريجها الذي لا يختلف كثيرًا عن عطر أخيها!



وضعها على الأريكة في صالة الشقة، بينما وقف ثلاثتنا حولها برفقة حسني الذي أخذ يصيح في صلاح ليبتعد عن صباح ويعطيها مجالاً للتنفس ويتوقف عن رش عطرها في المكان، ليس لمصلحة صباح بل لمصلحة أي كائن خلق الله له أنفا.

مارس حسني بعض الخدع الطبية التي يجيدها لإفاقة فاقدي الوعي، فاستفاقت صباح وعلى وجهها علامات الحزن والصدمة والإرهاق.

قال صلاح:

- صبوحة! مالك يا حبيبتي؟ إيه اللي حصلك؟

ظلت تبكي وتشير نحوي بسبابتها المرتعشة وهي تردد:

- ميدو! ميدو!

رمقني صلاح بغضب، وأعتقد أنه كان على وشك أن يسبني أو يضربني، لكن دخول رؤوف من خلفنا جعله يبلع غضبه.

وقف رؤوف يرتعش بعينين تلمعان من الدموع وهو ينظر إلى الموجودين بطريقة مريبة، وسأل صلاح بصوت مرتعش:

- خلاص؟ خدوا لؤي على المشرحة؟

هز صلاح رأسه بينما زاد بكاء صباح.

قال قطز:

- باشمهندس رؤوف، إحنا ....



لم يكد قطز يكمل جملته حتى تفاجأنا برؤوف يجذبه من ياقة قميصه ويدفعه في لحظة خاطفة صوب الحائط بعنف وهو يرتعد غضبا:

- إنت وعدت مراتي إنك هتلضم الليل بالنهار لغاية ما ترجع ابننا في حضنها، قوم ترجعهولنا جثة؟

جذبت رؤوف من الخلف وأطحت به بعيدا عن قطز في اللحظة التي ترك فيها صلاح شقيقته ووقف ليحيل بيننا وبينه.

هم رؤوف أن ينقض علينا مجددًا، لكن صلاح اعترضه قائلا:

- صلي على النبي يا رؤوف!

لكم صلاح بغضب عارم فصرخت صباح.سقط صلاح على الأرض فحاول رؤوف أن يهجم علي أنا الآخر .

تفاديت لكمته في لحظة فارقة، بينما باغته قطز من الخلف، وأحكم قبضته على ذراعيه ليشل حركته، لكن رؤوف الثائر ضربه بمؤخرة رأسه فأصاب أنفه وشفتيه.

اختل توازن قطز فهم رؤوف أن يلكمني مجددًا، لكني ركلت بطنه قبل أن ينال مني، فركع محاولا تقليل وطأة الألم، مما أتاح لي فرصة ركله مجددًا حتى سقط أرضًا.

حاول النهوض، لكني جثوت بجواره وثبته أرضًا بركبتي حتى أخرجت الأصفاد من جيبي ووضعتها في يديه.

صاح صلاح في وهو يضع يده على عينه موضع لكمة رؤوف له:



- بتعمل إيه؟

- إنت مش شايف حالتك إنت وقطز؟ ده اتعدى على تلات ظباط في أثناء تأدية عملهم يا أبو القوانين!

- يا جدع خلي عندك دين وراع حالته!

صاح رؤوف بصوت نبحه الغضب وهو يرفس الهواء بقدميه ويضرب رأسه بالأرض:

- إنت وأختك السبب يا صلاح! قلتلكم أنا ها عرف أرجعه بطريقتي فضلت تقولي القانون... أبويا قالكم لو بلغتوا الشرطة هيقتلوا ابني، فضلت تقولنا الأمن والعدل ... فين العدل يا صلاح؟ فين العدل يا صلاح؟ لؤي كان عيد ميلاده بكرة كان هيتم سنتين بكرة! فين العدل يا صلاح؟

هدأ صياحه الغاضب وخمدت ثورته المتقدة لتتحول إلى حداد ونحيب وبكاء حاد.

اقترب مني قطز وهو يضغط على أنفه وشفتيه النازفة بمنديل، ثم أشار إلي أن أفك قيد ذلك الثور الذي خضع الرمح رثاء ابنه وبَرَكَ حزنًا وقهرا.

فككت الأصفاد ووقفت بعيدا عنه في لحظة نزول الحاج رشيد من السطح متكئا على عكازه وانضمامه إلينا على إثر صوت الصياح والصراخ الذي لا شك أن صداه وصل إلى السطح. انتبه لهيئتنا ولآثار الصراع الذي دار في شقته، لكنه لم يبال بأي شيء غير تمدد رؤوف على سجاد الصالة البرتقالي الباهت وبكائه. هرول قدر المستطاع صوب رؤوف وألقى عكازه على قرابة متر من يد ابنه البكري. جثا على ركبتيه أمامه ثم جلس وهو يجذبه من الخلف واضعًا

رأسه على صدره وساندا ذقنه إليه، وقد رأيت على وجهه أعتى ملامح الذعر والقهر وهو يبكي مع ابنه المكلوم الذي نزف أنفه من قوة دفعي إليه أرضًا.

نظر الحاج رشيد إلينا وقال بفك يرتعش من فرط البكاء لكن بنظرات تستعر غضبًا:

صلاح! خد صحابك واتفضلوا من غير مطرود! آني مش عايز ألمح ظابط تاني هنا!

* * *

جلست أنا وقطز في السيارة أسفل عمارة الحاج رشيد أضمد له جرح شفتيه بعد أن توقف أنفه أخيرًا عن النزيف.

ارتشفنا الماء ودخنا السجائر في صمت مرير وكل منا يسترجع ما دار.

لقد أخفقنا. تسلمنا قضية طفل حي وأعطينا أهله وعودا زائفة، ثم أغلقنا القضية وهو جثة باردة.

كان يوما تعيسًا أعاد لكلينا ذكرى مقتل صديقنا عمر، وكيف أخفقنا في القبض سريعًا على قاتله ولم نحقق لأمه العدالة التي كانت ترجوها منا، مما جعلها تفقد عقلها وتصبح سفاحة تسمم كل من تشك في أن له يدا في مقتل ابنها .

أهذا ما فعلناه اليوم في رؤوف الذي كان مهندسا ماهرًا وابنا بارا بأبيه وزوجا وقورًا؟ جعلناه وحشا هائجا أوسع ثلاثة ضباط ضربًا من دون الخوف من أي عواقب.

كسر قطز الصمت قائلا:



- خلصت كده؟

- ما ينفعش نقفلها بالشكل ده.

- محدش من العيلة دي هيتعاون معانا، إحنا عكيناها مع الكل.

- وإحنا. من إمتى محتاجين حد معانا يا قطز؟

- هز رأسه متفقا معي، ثم قال وهو يتفقد إصابة أنفه في المرآة الجانبية:

- لسه شاكك في صباح؟

- ده أنا بقيت متأكد أكتر.

- ما أضحكش عليك، أنا أول ما لقيتها أغمى عليها لما سمعت خبر ميدو، بدأت أشك في إن رؤوف هو اللي قتل أخوه ودلوقت اتأكدت أكتر.

- إشمعنى؟

- رؤوف فضل يقول أنا لي طريقتي أرجع ابني بيها. يمكن يكون فعلا لقى طريقة يعرف بيها مكان ابنه المخطوف وعرف إن ميدو هو اللي ورا الحكاية دي قام قاتله انتقامًا منه. شفت أول مرة استجوبناه فضل يتكلم بمرارة إزاي، وإنه ساعد ميدو ودفع تمن أخطائه كتير؟ ضيف على ده انفعاله النهارده علينا. اتق شر الحليم إذا غضب.

- نظرية سليمة، بس لؤي رجع النهارده، وميدو اتقتل من أسبوع. ليه يقتل ميدو قبل ما يلاقي ابنه؟ مش الأولى يجبره يرجعله ابنه الأول؟

- أنا حاسس إن القاتل هيطلع حد تاني خالص بره العيلة دي.

- الواد لقوه ميت في حضن أمه. يعني اتقتل جوه البيت.

مين جوه البيت يقدر يسممه؟

- حرفيًا أي حد يا نوح. مش لازم صباح.

- طب نعيد صياغة السؤال، مين في البيت عارف إن عنب التعلب ممكن يسمم العيال؟

- ما ينفعش نبني القضية على معلومة أولية من غير تقرير مفصل من المعمل الجنائي. وحتى لو فعلا متسمم بسيانيد الهيدروجين اللي في عنب التعلب، إيه الدليل على إنه اتسمم جوه البيت؟ ليه ما يكونش أصلا اللي خاطفه قتله ويمنى مستلماه من الأول جثة، ومن كتر الصدمة دخلت بيه البيت حمته وغير تله هدومه ونيمته في حضنها؟

فكرت في تفاصيل ما طرحه قطز حتى صرخ عقلي طلبا للنيكوتين. أخذت سيجارة من علبتي، وناولت قطز واحدة دخنها بصعوبة بسبب ألم شفتيه.

نفثت دخاني ثم علقت:

- ما تيجي نحلل سيناريو القضية دي من آخره ما دام بدايته مش مبلوعة.

ليه يمنى راحت تقابل الخاطف وتستلم لؤي لوحدها من غير ما تبلغنا؟

- لأن تفكيرها زي تفكير رشيد ورؤوف، هما كمان ما كانوش عايزين يبلغوا من الأول، خايفين الخاطف يقتل لؤي لو الشرطة اتدخلت، وده اللي للأسف حصل فعلا.



- ليه ما عرفتش رؤوف؟ صباح بتقول إنه بيدور عليها من الصبح.

- يمكن القاتل قالها تيجي لوحدها؟

- ده اللي عايز أوصله مين اللي عايز يستفرد بيمني؟

شردت لبضع ثوانٍ، ثم تذكرت الشخص الذي تنطبق عليه تلك المواصفات، ولمت نفسي على أنني لم أتبع حدسي آنفا .

لو لم أنصت لتعليق يمنى لربما تمكنت من إنقاذ صغيرها. أنهيت السيجارة وألقيتها من النافذة وأنا أدير محرك سيارتي المرهقة، فسألني قطز:

- على فين؟

* * *

صففت سيارتي في الشارع الذي قيل لنا إن لؤي خُطف منه، ثم دخلنا العمارة التي أتذكر أن أم أسماء دخلتها حين قابلتنا المرة الماضية مع يمنى. طرقنا أول باب قابلنا وسألنا عن شقة أم أسماء، فدلتنا عليها المرأة العجوز التي فتحت لنا، وعرضت علينا بعفوية أن تصحبنا بنفسها حتى باب الشقة من دون أن تسأل عن هويتنا أو سبب سؤالنا عن شقة جارتها.

صعدنا إلى الدور الثاني، وبعد رنة واحدة لجرس شقة أم أسماء، سمعنا صوت خطواتها الثقيلة واحتكاك نعليها بالأرض، ثم فتحت لنا.

فاحت رائحة البصل والثوم من الشقة فور فتح الباب، واستقبلتنا أم أسماء بابتسامة مقتضبة قائلة:



- سلام عليكم.

- وعليكم السلام يا أم أسماء. هناخد من وقتك شوية.

راحت تتأمل هيئتنا الغريبة، إصابة قطز ودماء أنفه التي سالت على ياقة قميصه وسترته الصوفية، وسوار قميصي الممزق وأزراره المتدلية من موضعها.

- خير؟ مش إنتو البهوات اللي كنتوا مع البت يمنى ديك النهار؟

مظبوط. كنا عايزين نتكلم معاكي ومع ابنك نور، هو موجود دلوقت؟

- ابني؟ شكلكم متلخبطين في العنوان.

- ليه؟ نور ابنك مش عايش معاكي؟

- أنا مليش ابن اسمه نور يا ابني!

علق قطز بعواطفه الجياشة:

- أوام هتتبري من ابنك يا أم أسماء؟

- يا باشا آديك بتقولها بنفسك، أم أسماء، أنا معنديش صبيان ربنا كرمني ببنت واحدة بعد شوقة واسمها أسماء، أسماء متولي صقر.

أدخلتنا أم أسماء إلى شقتها المتواضعة. لا أفهم السر وراء غلقها كل نوافذ الشقة في أثناء طهيها لطعام يتطلب كل هذا الكم من البصل والثوم مما جعل دموعي تسيل بمجرد دخولي!



جلسنا في الصالون البسيط الذي تئن أرائكه الخشبية، ثم أحضرت السيدة أم أسماء الشاي ووضعته أمامنا وهي تسألنا: - إيه الحكاية يا باشوات؟ إيه اللي شلفط خلقتكم كده؟

-حادثة بسيطة.

- ألف سلامة، أنا كنت فاكراكم قرايب يمنى، إنما تقولي بوليس وتحقيق، ليه كل ده؟ البت يمني هيبت إيه؟ يشهد علي ربنا، أنا ياما قلت للبت أسماء مش إلها دعوة بيها.

الله الوكيل يا باشا أنا عمري ما حبيت البت دي، ومن يومها وأنا عارفة إنها صاحبة سوء وباحذر أسماء منها.

- إنتو بلديات يا أم أسماء؟

- آه، بس أنا جيت مصر مع أبو أسماء من سنين ياما، وأسماء مواليد هنا وخريجة مدارس هنا، مش زي يمنى المحدثة اللي يا دوبك بتعرف تفك الخط.

- أومال ليه أسماء مصاحباها؟

- شفقة يا بيه، أقولك إيه ولا إيه على أسماء بتي، قلبها بياض وعقلها براح، متعلمة وفنانة، آه والله، فنانة كبيرة أوي كمان، أسماء كانت الأولى على قسم التفصيل كله وخدت الدبلون بدرجة تشرف.

- هي موجودة دلوقت؟



- لأ، في البوتيك اللي شغالة فيه في الزمالك، عند مدام نازلة صبحي، اللي بتلبس الفنانين، بتلبس نجوم مصر كلهم، مدام إنعام سالوسة ومدام إنعام الجريتلي ومدام إنعام محمد علي....

همس لي قطز:

- واخدة توكيل إنعامات مصر!

ابتسمت رغما عني، بينما تابعت أم أسماء ثرثرتها:

- ما تآخذنيش يا باشا، بس إيه موضوع ابني نور ده؟ يمنى نيلت إيه؟

- الموضوع ملوش علاقة بيمنى، إنت ما تعرفيش إيه اللي حصل للؤي؟

ضربت كفيها بانفعال وصاحت:

- يا دي الوكسة! الله الوكيل ما أكلته حاجة. هي من ساعة ما سابت الواد عندنا وهو بيرجع يا باشا، وأنا قلتلها ....

سألها قطز:

- سابت الواد عندكم إمتى؟

- اليوم اللي شفتكم فيه كان لؤي بقاله يومين عندنا. البت إجت وقالت لأسماء إنها مسافرة لأمها عشان عيانة وخايفة تاخد الواد معاها ليتعدي، آديك شايفه مريض ووشه مصفر من ساعة ما اتولد.

قلتلها ما تسيبه في البيت وصباح مرات أخو جوزها تهتم بيه، بس هي قالتلي يمنى بتخاف على الواد منها. حاكم إنت عارف ربنا لسه ما رزقش صباح وميدو

بالخلف الصالح ويمنى شايفة يعني إن صباح بتحقد عليها ... لا مؤاخذة يا باشا شغل نسوان ناقصة في بعض ما تاخدش في بالك إنت.

- يعني يمنى سابت لؤي عندكم بمزاجها؟

- أومال يعني هناخد منها الواد غصب؟ هو أنا غاوية وأوأة عيال وصداع في السن ده؟!

- وجت خدته ليه؟

- مش عارفة. هي اتصلت بأسماء وإجت خدته وريحتنا من صداعه وقرفه.

كنت سأطرح عليها مزيدًا من الأسئلة، لكننا سمعنا باب الشقة يُفتح ثم دخلت أسماء. كانت نسخة مصغرة من أمها السمراء الممتلئة، وترتدي تربونا بنفسجياً وإكسسوارات عصرية وثيابًا غالية، وتضع عطرًا رائحته الباهظة لا تناسب أثاث شقتهما.

نظرت إلينا باستغراب، فقالت أمها:

- تعالي يا عين قلبي، سلمي على الباشوات، الظابط نوح والظابط أيبك.

- قطز.

- شرحه يا باشا مش إشكال. تعالي يا حبة عيني شوفي صاحبتك يمنى هيبت إيه.

وشت نظرات الهلع على وجه أسماء بأنها تعرف أكثر مما تعرفه أم أسماء.



صافحتنا مرتبكة وهي تجاهد ألا تنظر إلى أي منا مطولا ، ثم جلست بجوار أمها وهي تقول بتوتر :

- خير؟ مالها يمنى؟

أجابها قطز:

يمني بلغت إن ابنها اتخطف، لكن من كلام والدتك من الواضح إن ابنها كان هنا.

- هي بلغت البوليس؟

سألتها:

- إنتو كنتوا متفقين إنها ما تبلغش الشرطة؟

صاحت أم أسماء:

- اتفاق على إيه يا باشا؟ لأ معلش، أسماء مش إلها اتفاق مع حد. باقولك الواد كان ضيف عندنا لحد ما يمنى تمرض أمها وترجع بيتها، تقولي خطف؟

حدقت إلى أسماء التي توترت وأخذت تعدل التربون على شعرها تارة وكمي بلوزتها الفضفاضة تارة أخرى.

تركت الصمت يزعجها أكثر، ثم تنهدت قائلا ببطء:

- إنت إيه رأيك في الكلام ده يا أسماء؟



كانت أسماء في موقف لا تُحسد عليه. تحاول أن تهرب من أعيننا المتشككة المسلطة عليها من جهة، ومن نظرات أمها المتسائلة بقلق من جهة أخرى. ابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت:

- اعمليلي شاي يا امه.

نظرت إليها أمها بشك، ثم نهضت وكل عظمة فيها تطرقع، وقالت:

- ماشي يا عين أمك.

تركتنا الأم فقالت أسماء هامسة:

- أنا مليش دعوة. يمنى اللي قالتلي خلي الواد عندك يومين لحد ما آجي آخده، جت النهارده وخدته مستحمي ومتعطر وسليم زي ما سابته بالظبط. فين المشكلة بقى؟

- المشكلة إن الواد اتقتل.

لطمت وجنتيها:

- يا نهار إسود! إمتى؟ مين قتله؟

عندك دليل على إنه طلع من بيتكم عايش؟

- يعني إيه؟ إنت فاكر إننا ممكن....

قاطعتها بنبرة حازمة:



- بلا فاكر بلا مش فاكر! اختصري يا أسماء! إنتِ ويمنى كنتوا متفقين على إيه؟

- على إن الواد يفضل قاعد عندنا في البيت معزز مكرم.

- عشان؟

- عشان... عشان... عشان يمنى وميدو اتفقوا يعملوا إن الواد مخطوف بس والله العظيم ما لمسنا الواد. كانوا هيطلبوا الفدية من الباشمهندس رؤوف والحاج رشيد، وبمجرد ما يدفعلهم الفلوس، ميدو يسدد ديونه وهي تيجي تاخد الواد من عندي وبس، ولا من شاف ولا من دري.

- وإنت سايرتيها ليه؟

- عشان أستر عليها. ميدو كان بيبتزها، وقالها لو ما ساعدتهوش وسددتله ديونه هيفضحها!

- بيبتزها بإيه يعني؟

آثرت أسماء الصمت، مما ترك لخيالي مساحة كافية لملء الفراغات في هذه القصة الثعبانية.

- علاقة يمنى وميدو بقالها أد إيه يا أسماء؟

أجابتني من دون أن تنظر إلينا:

- سنتين.

- وميدو كان ...



- الله يسترك يا باشا اعفيني من التفاصيل! ده عرض صاحبتي! ما أقدرش أتكلم أكثر من كده! عادت الأم ومعها كوب الشاي الإضافي لأسماء، ثم سألتنا:

دور تاني يا باشوات؟

* * *

غادرنا شقة أم أسماء، وطيلة الطريق كنت أدقق في شارعها الذي زعمت يمنى اللعينة أن ابنها اختطف فيه.

لقد اختارت هذا الشارع بعناية، شارع يخلو من أي حركة لا توجد كاميرات مراقبة تعمل ولا يطل على أي شوارع رئيسية.

كيف غابت عني استحالة أن تصرخ امرأة في أي شارع من شوارع مصر من دون أن يلتف الناس حولها؟! كل الجيران لم يشهدوا شيئا، لم يسمعوا صوتا، لم يلمحوا ملثما على دراجة نارية يختطف طفلا. كيف لم أعط لتلك التفصيلة ما يكفي من الفحص والتمحيص؟!

كيف لم ألاحظ أن يمنى قالت إن اسم ابن أم أسماء نور لمجرد أنه قريب من اسمي نوح، مما جعل ارتجالها ساذجا وسطحياً؟!

كيف حين سأل قطز صاحب الكشك عن الكاميرا الخاصة به قال إنه ثاني شخص يسأله عن تلك الكاميرا فصدقنا على الفور أنه يقصد صلاح وليس يمنى التي لفقت تلك القصة الخبيثة؟!

لا بد أن ميدو ويمنى اتفقا على كتابة ورقة الفدية التي وجدتها في جيب سترة ميدو الجلدية، وتسليمها إلى العائلة بطريقة ما، فكيف نسيت أن يمنى هي أيضًا كانت في غرفة ميدو بينما كنت أحتسي الشاي مع صلاح وقطز؟

نعم، صباح ويمنى دخلتا الغرفة، لكن يمنى سبقتها، وهي التي خبأت ورقة الفدية على عجلة خلف البوستر، بينما كانت صباح مهتمة بإخفاء شيء في خزانة ملابس ميدو.

ربما كانت الخزانة هي المكان الذي يخفي فيه مخدراته، لذلك حرصت على ألا نجدها.

كيف لم أتوقع علاقة غير مشروعة تجمع بين يمنى وميدو، ولهذا خاطرت باختلاق واقعة الخطف كلها؟!

هل لأنني أفرطت في تمضية الوقت مع صلاح في الأيام الماضية فصرت غبياً مثله؟



٨

عدنا إلى العمارة الأنيقة التي صارت مسرح جريمة من الطراز الأول. وقبل أن ندخلها توقفت عند أهم شهود تاه عن بالي استجوابهم منذ اللحظة الأولى، العاملون على عربة كبدة الكحلاوي.

كان هناك عاملان ثابتان في مكانيهما، الأول يُعد الساندويتشات، والثاني يتولى الحساب والتغليف. ثم هناك اثنان آخران يتنقلان لتنظيف المكان، وتسليم الساندويتشات للزبائن في سياراتهم وللجالسين بعيدًا عن موقع العربة.

أول من وقع عليه بصري من الرصيف المقابل للعربة، كان الشاب المسؤول عن تغليف الساندويتشات في ورقها الأبيض، لأنه كان يتابعني بنظره منذ أن صففت السيارة، فخطوت صوبه مع قطز.

أشرت إليه فاقترب نحونا بابتسامة واسعة:

مساء العسل يا باشاوية، تؤمروا بإيه؟

- اسم الكريم؟



- بياضة. إحنا كله في السليم يا باشاوية. معانا ورق الصحة وورق الحي وواخدين العلامة الزرقة على الفيسبوك، ولو على وصلة الكهربا دي فإحنا هـ....

- شفت حد غريب دخل العمارة النهارده يا بياضة؟

- لأ خالص يا باشاوية والله على كل القلق اللي حصل النهارده ده إلا إن مفيش شخص غريب دخل.

– وإنت إيه رأيك في القلق ده؟

- ربنا له حكمته يا باشاوية، بس أنا حزين.

- حزين ليه يا بياضة؟

- يعني! أنا قلت خلاص الغمة انزاحت لما لقيت الأبلة يمنى داخلة وشايلة لؤي على كتفها وراجعة بيه بالسلامة.

سأله قطز:

- إمتى الكلام ده؟

- مع أذان العصر كده.

- لوحدها؟

- آه يا باشاوية، خرجت لوحدها ومفيش نص ساعة كانت رادة تاني وعلى كتفها لؤي، الله يرحمه.



- كانت شايلة الواد عايش ولا ميت؟

- عايش، وضحكته منورة الدنيا.

- فيه أي حد تاني دخل أو خرج من أهل الحاج رشيد؟

- لأ يا باشاوية، هي الأبلة يمنى، وحتى حاولت أسألها عن ابن الصرمة اللي خطف العيل، أحسن الباشمهندس ميدو كان قالي إنه لو لقاه هيسلخه حي، بس هي كانت مستعجلة وما خدتش بالها إني باكلمها من أساسه.

- إنت وميدو صحاب؟

- أهل المنطقة كلهم صحابي. قول بياضة كده قدام أيتها شخص هتلاقيني حبيبه. بس الباشمهندس ميدو ده شقي يعني بحكم الجيرة، وهو كل ليلة على أذان الفجر أول ما الحاج رشيد ينزل المسجد يصلي، يبعتلي طلبه على الواطس، ثلاثة سجق حامي من غير طحينة وتلاتة كبدة. أطلعله السطح أديهمله وأقعد معاه شوية وأنزل أكمل شغل.

وعلاقته بلؤي كانت عاملة إزاي؟

- كان بيحبه حب مش طبيعي يا باشاوية، أكنه ابنه بالظبط، حاكم يعني ربنا ما رزقهوش هو والست صباح. طب والنعمة اللي بالفها في الورق دي، الباشمهندس رؤوف كان بيغير من كتر ما لؤي بيحب ميدو. الله يصبر قلوبهم بقى الباشمهندس رؤوف والله ده بلسم يتحط على الجرح يطيب، ما يستاهلش اللي حصله ده، اللهم لا اعتراض يعني.

- يعني يمنى اللي تستاهل؟



آثر بياضة الصمت، فسألته بخبث:

- سكت يعني؟

- ما لازم أسكت يا باشاوية، حاكم أنا عندي حريم. الله يصلح حالها ويهدي الباشمهندس ميدو.

- ده إنت مغوط في فضايح العيلة بقى!

- يا باشاوية سايق عليك النبي ما تجرجرني في الكلام، دي أعراض ما يصحش.

- أومال إنت عرفت حكاية يمنى وميدو دي منين؟

- زلة لسان من الباشمهندس ميدو في قعدة صفا.

قعدة صفا، آاااه... إنت آخر مرة كلمت أو شفت ميدو فيها كانت إمتى؟

- فجر الجمعة. اتصلي بي فطلعت السطح أديه الطلب لقيت الحاج رشيد، الله يباركلنا في صحته، بيقولي إن ميدو مش موجود من أساسه وبقاله شوية ماسك الطريق للغردقة.

- إنت اتأخرت عليه للدرجة دي؟

- بياضة يتأخر! لا مؤاخذة يعني يا باشاوية دي تبقى إهانة في حق تاريخ العربية دي، ده أنا ....

قاطعت افتخاره بأولمبياد لف الساندويتشات، وصحت فيه بنفاد صبر:



- انجز يله! إزاي ميدو طلب منك الأكل ومسافة ما طلعتله اكتشفت إنه في الغردقة؟ ما شفتوش نازل؟

- مش عارف أقولك إيه... بس هو الباشمهندس ميدو لا مؤاخذة في دي الكلمة، راجل مزاجه رايق، كل لما بيروق على حاله بتطلب معاه كبدة وسجق، فأحيانا بيسقط وما بيجمعش الزمكان بتاعه ويقوم باعتني البعثة دي. مش أول مرة يعني.

- وإنت بقى كنت بتروق على حالك معاه يا بياضة؟ هي دي قعدات الصفا اللي بيحكيلك فيها عن أسراره؟

– حد الله يا باشاوية. حلّلي لو عايز.

الحشاش الكاذب اللعين ذو العينين الحمراوين!

كان لدي المزيد من الأسئلة، لكن لمبة ما أضاءت في عقلي ورسمت لي السيناريو النهائي لهذا الفيلم التعيس.

هكذا صارت الأمور كلها واضحة لي، وجدت القطعة الأخيرة من الأحجية التي أكملت الصورة.

أسرعت إلى العمارة وسمعت قطز يتبعني متسائلا:

- هتعمل إيه؟

- هاجيب آخرها، القضية دي هتتقفل النهارده.

صعدت السلالم مسرعًا متخطيًا شقة آل رشيد وصولاً إلى السطح الخالي.



تفاءلت بخلو السطح، ووقفت عند باب غرفة الحاج أطرقه وأنا ألهث من صعود السلالم.

اللعنة على التدخين!

لم تأتني إجابة، فنظرت من نافذة الغرفة المفتوحة، ورأيت من خلالها يمنى جالسة في الفراش وعلى رأسها حجابها المرتخي الذي كشف غرتها ونصف شعرها.

قلت لها من النافذة الصغيرة التي تسلل من خلالها ضوء السطح الملقى على وجهها الحزين الغائب عن الواقع:

- إحنا هندخل يا يمنى.

لم تعلق، فاعتبرت السكوت علامة الرضا، وفتحت الباب غير الموصد ودخلت الغرفة. تبعني قطز من دون أن يفهم شيئًا، ووقف عند الباب يراقبني أسحب الكرسي الخشبي بجوار النضد الأبيض وأجلس قبالة يمنى الصامتة.

أخذت بضعة أنفاس عميقة لأتوقف عن اللهث وأتمكن من الكلام بهدوء:

- أنا عرفت اللي حصل يا يمنى.

لم تتفاعل بأي شكل.

- إحنا لسه راجعين من عند أسماء.

وقت بدأت تنتبه لما أقوله.

نظرت إلي بعينيها الميتتين لتنصت لما أقول:

- أسماء قالتلي عن اللي بينك وبين ميدو. ميدو أجبرك على التمثيلية دي. كان بيبتزك فألفت السيناريو ده. بس واضح إن لما رؤوف ورشيد ما استجابوش لحكاية الفدية هددك أكثر فقتلتيه ورجعت لؤي من عند أسماء عشان القصة تنتهي. بس من سوء حظك رؤوف كان شك فيك، يمكن صباح هي كمان كانت شاكة في ميدو، فقعدوا سوا وفكروا واكتشفوا اللي بيحصل من ورا ضهرهم تحت نفس السقف اللي كلكم عايشين فيه. رؤوف واجهك النهارده بإن لؤي مش ابنه، أنكرت فضربك وقالك إنه هيقدر يتأكد بنفسه بتحليل «دي إن إيه».

طبعًا إنتِ فاهمة ده معناه إيه. الطلاق والفضيحة، ومش بعيد أهلك في البلد يقتلوك. فالحل الوحيد، إن ما يبقاش فيه دليل على خيانتك له مع ميدو. وهو إيه الدليل الوحيد على علاقتك بميدو غير لؤي؟ لؤي يموت يعني مفيش جسم يتعمله «دي إن إيه»، ومفيش تأكيد لكلام ميدو مش كده؟

ظلت تنظر إليَّ بالتعبيرات الجامدة نفسها من دون أي تعليق.

- خنقت لؤي يا يمنى ولا سممتيه بعنب التعلب عشان تلبسيها لصباح؟

حركت شفتيها بضع مرات كأنها تستدعي صوتها، حتى تمكنت أخيرا من التحدث بصوت باهت:

- أسماء حكت إلكم عني أني وميدو؟

- فين جثة ميدو يا يمني؟

- كده الناس كلياتهم عرفوا عن حكايتي أنا وميدو خلاص؟



كنت على بعد خطوة من الحصول على اعتراف كامل مفصل يملأ الثغرات والفراغات في هذه الجريمة الشنيعة، لكن اقتحام صلاح للغرفة ككلب البحر أفسد علينا تلك اللحظة المجيدة.

- سيب يله إنت وهو حريم العيلة، وانزلولي الشارع نتكلم دكر لدكر!

* * *

طاوعنا صلاح حتى لا يتفاقم الوضع، فالجميع متوتر ويشتاط غضبًا. وبما أن يمنى لن تتمكن من الهرب على أي حال، فقد نزلنا إلى الشارع ووقفنا على الرصيف الهادئ المقابل لعربة الكبدة بجوار كشك صغير لنسمع ما عند صلاح.

- إيه اللي إنت قلته لأختي ده يا ابن الـ...

قاطعه قطر محتدا:

- جرى إيه يا صلاح؟! هنسب بعض في الشارع!

- إنتو لو عروقكم بيجري فيها بيبسي وتقبلوا ده على إخواتكم، فأنا دكر ابن دكر وأقرقش اللي يفكر بس يقول كلمة تنكد على أختي!

قلت له ببرود وأنا أتأمل الكدمة السوداء حول عينه:

- طب ما كنت قرقشت ميدو بدل ما إنت سايبه يخون صباح مع يمنى!

انصدم صلاح:

- يمني؟! عندك دليل على الكلام ده؟

- عايز تفهمني إن إنت وصباح ما كنتوش عارفين؟

- لأ طبعا. صباح كانت شاكة إنه بيخونها بس مش عارفة مع مين وعشان كده طلبت منه الطلاق وسابتله البيت.

صباح كان بقالها أسبوعين قاعدة معايا في البيت.

- وإيه اللي رجعها؟

- عشان بنت أصول، وبتعتبر إن الحاج رشيد في مقام أبوها. ورغم وساخة ميدو لكنها رجعت لما عرفت إن لؤي اتخطف، عشان تصبر الحاج ورؤوف ويمنى بنت الحرام على مصيبتهم.

- عايز تقنعني إن صباح عايشة تحت سقف واحد مع عشيقة جوزها ومش حاسة بحاجة؟

- أختي نضيفة وبتشوف الناس بعينيها. قُصر الكلام، صباح دي ست بميت راجل من عينتكم! وعزة جلالة الله، لو فكرتوا بس تعملوا عليها شغل المباحث ده تاني لأكون موريكم رجالة عابدين بيعملوا إيه في اللي يقربوا من حريمهم يا خريجين المدارس الإنترناشونال يا عرر يا شوية ....

كدت أقاطعه حتى أرد على تهديده الفارغ، لكني لمحت ظل شيء يهبط من أعلى العمارة في اتجاه عربة كبدة الكحلاوي...

حط الشيء على العربة، فتهشم زجاجها وتناثر على الأسفلت، وهبط سقفها وانبعج صاجها، وتبعثر الخبز والزيت الساخن والمخلل والسجق والكبدة....



صرخ الجميع من هول الصدمة، وركض كل من كان بالجوار وتجمهروا أمام هذا المنظر المقبض. كانت صورة دموية لا يُفضّل أن تستقر في ذهن أحد، فأبعد الناس أنظارهم وهم ينطقون الشهادة ويحوقلون.

حاول ثلاثتنا فض هذا التجمهر لنتمكن من رؤية صاحب الجسد الساقط من فوق السطح. وصدمنا عند اكتشاف أنها يمنى، وكانت تنزف من كل مكان!

سمعنا أنفاسها تتحشرج فعلمنا أنها لم تمت بعد. تعاونا لحملها من فوق سقف العربة الذي انطبق على الأسفلت، ووضعناها على الرصيف المستوي ليسهل عليها التنفس.

انشغل صلاح بإبعاد الناس عنها، بينما شهدت أنا وقطز واحدة من أبشع التجارب الإنسانية.

أسوأ ما في الموت سقوطا من هذا الارتفاع غير الشاهق هو أن صاحبه لا يموت على الفور، تتكسر عظامه لكن لا تتهشم جمجمته، ويكون سبب الوفاة الأساسي هو ثقب الرئة، فيفيض دمه وينزف داخليا وخارجيا إلى أن يختنق من دمائه التي تغزو رئتيه وتفيض من أنفه وفمه.

هكذا ظلت دماء يمني تختلط بالرغوة الفائضة من فمها، وهي تنظر إلينا، وعيناها تدوران في محجريهما يمينا ويسارًا في حالة من الهلع.

قبضت على يد قطز مذعورة كأنها تطلب منه النجدة، وحاولت أن تنطق بشيء، لكن دمائها الفائضة من فمها منعتها من الكلام.



وضع قطز كفه الثانية على يدها القابضة على يده وابتسم لها ابتسامة ودودًا لا أعرف كيف استطاع أن يرسمها على شفتيه في تلك اللحظة المتوحشة، ثم قال لها بحنان:

- ما تخافيش الدنيا ما تستاهلش الخوف ده كله. الموت مش مرعب زي ما إنت متخيلة.

ظلت تنظر إليه النظرات الهلعة نفسها وقد سالت دموعها، فهمس لها:

- ربنا أرحم مننا كلنا. ما تخافيش.

كادت حركة عينيها في محجريهما أن تهدأ، لكنها رأت صباح بين الناس تقترب منا وهي تصرخ.

مدت يمنى يدها نحوها، لكن صلاح قال:

- ما تبصيش يا صباح!

كان الأوان قد فات، فقد رأت صباح هذا المشهد الدامي، واقتربت من يمنى التي ظلت تنظر إليها بالذعر نفسه.

همس قطز لصباح:

- مسمحاها؟

نظرت صباح إليه ثم إلى يمنى في حالة من عدم الفهم في البداية، إلى أن هم إليها صلاح بسبب طلبها للغفران منها.

- إنت يا يمني؟



بكت صباح بحرقة وقلة حيلة، لكنها لم ترفع عينيها عن يمنى.

أجبرت صباح نفسها على التوقف عن البكاء، ثم قالت بصوت مبحوح:

- مسمحاك، قلبي مسامحك.

سكنت أنفاس يمنى المذعورة، ونظرت إلى قطز نظرة مسالمة، فابتسم لها وراقبها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بسلام.

انتهى رزقها في الدنيا، وتوقف قلبها عن النبض، وحل شحوب الموت على ملامحها الطفولية.

انهارت صباح وعادت إلى البكاء وهي تتمتم:

- يا عيني على شبابك يا يمنى! الله يسامحك! الله يسامحك!

كان المنظر درامياً صادمًا لكل من لم يألف الجثث ومواقع الجرائم، لكن تلك المهنة تفقد الإنسان شيئًا من إنسانيته دون أن يدري، حتى يصير مشهد الجثث أمامه كمشهد زائف في فيلم هوليوودي مبالغ فيه، أو ربما هذه هي وسيلة الدفاع التي هيأها لي عقلي لأتمكن من فحص جثث القتلى والنظر إلى أعينهم الميتة دون أن أفقد عقلي كليًّا.

* * *

جلس ثلاثتنا على الرصيف بعيدا عن الطوق الأمني الذي زاد بنسبة عشرين في المائة حول موقع سقوط يمني. كانت هيئتنا مثيرة للشفقة. ملابسنا ملطخة بدماء يمنى، وثيابي ممزقة من شجاري مع رؤوف، وقطز أنفه وشفتاه مصابة، وصلاح لديه كدمة داكنة ضخمة حول عينه.



أخرج صلاح علبة سجائره فاكتشف أنها فارغة، فناولته سيجارة من علبتي أخذها بامتنان من دون أن يتحدث. لم يكن لدينا ما يُقال، لا نملك القدرة على التفكير أو التحليل. كل ما نعرفه وفقًا للطب الشرعي من نظرتهم المبدئية إلى الجثة، أنه لا توجد آثار صراع أو مقاومة، أي أن يمنى قفزت من فوق السطح بكامل إرادتها.

يمكن أن أقول إنها انتحرت بسبب صدمتها في موت ابنها، أو خوفًا من الفضيحة، أو هربا من تهديدات رؤوف، يمكن أن أرسم ألف سيناريو، لكني أعرف الحقيقة، أنا القشة التي قصمت ظهر البعير!

نهضت عن الرصيف قائلا:

- يلا.

سألني صلاح نافثًا دخانه بهدوء:

- على فين؟

- الحمّام، السرير، أي داهية! إحنا بقالنا يومين صاحيين بنلف في الشوارع!

مد صلاح يده نحوي فساعدته على النهوض وكذلك قطز.

افترق ثلاثتنا من دون مزيد من الكلام، فنحن حاليا غير مؤهلين لأبسط التعاملات البشرية.

* * *



لا أدري كيف وصلت أنا وقطر إلى البيت بسلام، فأنا الريادي بوحشية بالكاد أذكر تفاصيل الطريق.

صعدنا إلى العمارة، وكل من قابلنا في أثناء ذلك حدق بارتياب إلى الدماء التي تلطخ ثيابنا حتى دخلنا الشقة.

تركت حمام الضيوف لقطز ودخلت حمام جدتي. تركت البانيو يمتلئ بالمياه الدافئة، بينما أخلع ثيابي الملطخة بالدماء.

أن ترى الموتى وتفحص جثثهم، أمر يمكن تحمله بل يمكن التعود عليه. لكن أن تراقب إنسانًا تخرج منه الروح بصعوبة وبطء، فهو أمر يستحيل على أي عاقل تقبله، والألعن حين تكون مسؤولا عن دفعه لإنهاء حياته بنفسه.

أنا من دفع يمني إلى الانتحار! أنا من أوصل إليها رسالة بأن الجميع علم بأمر خطيئتها ولا مفر من فضيحتها! ماذا كنت أتوقع من سيدة فقدت طفلها وأدركت أن الجميع كشف سترها؟ ها هي ذي ثاني روح صرت مسؤولا عنة إزهاقها!

فتحت صنبور الحوض لأنظف يدي من دم ضحيتي الذي جف بين خطوط كفّي وأنامل أصابعي وتحت أظافري. تسارعت أنفاسي وأنا أفرك يدي بوحشية، كأنني على وشك سلخ جلدي حتى أتخلص من دماء يمني!

استعاد عقلى اللعين ذو الذاكرة الفوتوغرافية الممتازة أدق ٦ تفاصيل موتها؛ دمها حشرجتها، نظراتها، رغوة الموت في فمها، تشبثها بيد قطز ...

خفق قلبي وشعرت بأنه سينفذ من بين ضلوعي هربًا من نوبة الهلع التي بدأت تسيطر علي!



خانتني ساقاي فهويت أرضًا بجوار البانيو الممتلئ. وبلا أدنى سيطرة على نفسي بكيت بكاء هستيريا، وشعرت بذعر كاسر يسيطر على كياني، كأن الموت يقف خلف باب حمامي متلهفا لحصاد روحي! سمعت صدى صوت بكائي، لكني أدركت أنني لست الوحيد الذي انهار من تلك التجربة المريعة، فقد تردد إلي صوت بكاء قطز في الحمام الآخر!

***

لم تفارق المشاهد الدامية أحلامي الليلة:

جثة عمر صديقي في المشرحة. جثة جدي في فراشه. قبر أبي. الجثث التي حققت في مقتلها: فتاة مذبوحة في سيارتها، امرأة دفعت من شرفة بيتها بعد أن طعنت في ظهرها، أطفال بلا مأوى تسمموا بسم الأتروبين، جثة راقصة غارقة في خزان مياه عملاق أربعة أشخاص اختنقوا بسم السيانيد، رجل ثلاثيني عار أصابت حماته رأسه بطلقة لم تقتله لكنها شلت بدنه كله، جثة لؤي الصغير في كيس الموتى، دماء يمنى على الأسفلت وصوت حشرجتها.

وسط مكب نفايات كبير أطارد مراهقا لديه ندبة في رأسه تشبه قرن التيس، يحاول أن يطعنني بمطواته، لكني أعكس يده وأستخدم قوته ضده فأصيب عنقه بسلاحه. نظراته مذعورة وحائرة، وحشرجته هلعة، ودماؤه سائلة، يسقط أرضًا ويموت والمطواة ما زالت في عنقه النازفة. أقترب منه لأتأكد أنه مات، فجأة يقبض على رسغي بيديه الباردتين ويقول لي بعينين ميتتين: «ما كنتش أستحق فرصة تانية؟». أحاول التملص منه. أصرخ فلا يخرج مني صوت.



يظل المراهق الميت ممسكًا بي. من دون مقدمات، يتحول وجهه إلى وجه يمنى في لحظاتها الأخيرة وهي تنزف بعنف، ثم تقول لي بصوت غاضب مرعب: «ربنا ممكن يسامحني لكن عمره ما هيسامحك!». يمنى تمسك رمحًا حاد الطرف كرماح مصارعة الثيران وتصيبني به في الجانب الأيسر من جبيني. يتغير ديكور المشهد: لم أعد في مكب النفايات. أنا أرتدي ثوبًا عتيقا أسود اللون ومصاب برمح في رأسي الذي ينزف على سجادة برتقالية باهتة. أنا في غرفة قصر مترف داكنة الألوان ضعيفة الإضاءة. أمي تدخل علي مرتدية ثوبا أسود فضفاضا وعلى وجهها رذاذ دماء. تجدني ساقطاً أرضًا والرمح في رأسي، فتنتزعه من موضع إصابتي ثم تجلس خلفي، وتجذبني من ظهري وتضع رأسي على صدرها، وتسند ذقنها إلى شعري وترتسم على وجهها تعبيرات الذعر. الآن صرت حبيس لوحة إيفان الرهيب وابنه إيفان! حاولت التملص من أمي لأخبرها بأنني حي، لكنها ضغطت على رأسي وأجبرتني على أن أظل نائما على صدرها احتضنتني بعنف أطبق على أنفاسي، ثم صرخت في أذني صرخة مرعبة قادمة من الجحيم.

استيقظت وأنا أشهق بعنف كما في الأفلام المبتذلة.

كان رد فعلي الأولي أن وضعت يدي على الجانب الأيسر من جبيني لأتأكد أنني لست مصابًا برمح كما في كابوسي. أخذت كوب الماء من فوق الكومود وشربته حتى تهدأ أنفاسي وأنا أمسح العرق عن عنقي وجفوني.

كان قطز لا يزال نائمًا ويشخر بعنف بجواري.

نظرت صوب النافذة المقابلة لفراشي فلمحت ضوء الغروب لأكتشف أنني نمت قرابة نصف يوم.



نهضت عن الفراش وخرجت إلى الشرفة عسى أن يهدئ نسيم الغروب وسحره روحي كما يفعل مع قطز.

صفعت برودة الجو جسدي الدافئ المتعرق لكني لم أبال أشعلت سيجارتي في هدوء، لكن غزت رائحتا الكحول والكوكايين أنفي فالتفت لأجد ميدو قد حضر إلى شقتي!

٩

وقف ميدو بجواري في الشرفة وقال بنبرة غاضبة:

- إنت مستني كام حد يموت في عيلتي عشان تقبل مساعدتي يا لورد؟!

- مساعدة إيه يا بجح؟ إنت مش مكسوف على دمك يله؟

- دم البت اللي انتحرت دي في رقبتك إنت !



صاح:

فكرك يعني أنا مش عارف ده؟ فكرك إني مش شايل ذنب انتحار مرات أخويا ودمار أخويا نفسه بسببي؟

- وما دام إنت بتحس كده، رحت تبتز يمني وتقولها إنك هتعرف أهلها على اللي بينكم ليه يا نطع؟

- أنا؟! والله العظيم ما حصل. أنا عمري ما فتحت معاها الموضوع ده. مين قالك الهجص ده؟!

- هي اللي قالت كده لأسماء، وده اللي أجبرها تعمل تمثيلية خطف لؤي دي عشان....

- أجبرها؟ يمنى هي اللي حطت الخطة دي كلها أصلا

- بأمارة إيه؟

- بأمارة إنها عرضت علي ناخد فلوس الفدية وهي تطلب الطلاق من رؤوف وأنا أطلق صباح ونهرب ونتجوز. يمنى كانت بتحبني، وأنا ... أنا كنت متنيل مش في وعيي لما ده حصل.

- أومال يمنى قالت كده لأسماء ليه؟

- عشان توافق تخبي لؤي عندها.

- إيه اللي ضمني إن اللي بتقوله ده بجد؟



- بصلي يا لورد، اللي قدامك ده شكل واحد فايق يقدر يخطط لكل الحاجات دي؟

وورقة الفدية؟

- فكرتها هي بس أنا اللى كتبتها، وزي ما شفت الخيبة كده، نسيتها في جيب الفيست.

- عارف يا ميدو لو طلعت بتحور ه ....

- هاحور عليك ليه؟ هيحصلي إيه أكثر من إني اتقتلت؟!

زفر بعمق وتأمل الغروب هنيهة، ثم استطرد قائلا:

- ممكن بقى نتعاون؟ مش أنا برضو أولى من صلاح؟

- عندك إيه؟

- كل اللي تحتاجه. لؤي اتقتل ويمنى انتحرت وأنا اتقتلت وإنتو لسه مش مشتبهين في حد و...

- مين قالك كده؟ كان عندنا مشتبه فيهم.

- مين؟

- طماشة ورؤوف وصباح.

- صباح مين؟ صباح مراتي؟!

- أومال صباح اللي بتغني!

ضحك ضحكة مستهزئة مستفزة ثم قال:

- إنت بتحرق بنزين على الفاضي، وما دام دماغك مع صباح، فإنت بعيد خالص عن الحقيقة.

- اللي هي إيه؟

- الكيف مناولة يا لورد. عايزني أرولك الحقيقة وأناولهالك جاهزة مقابل إيه؟

- وإنت بروح أمك هتعوز إيه وإنت ميت؟!

- ها عوز أتدفن في قبر فوقيه تراب يسترني. أنا واثق إن اللي قتلني ما دفنيش زي باقي الخلق.

- إشمعنى؟

- مش عارف، بس أنا متأكد.

تنهدت ثم زفرت مستسلما:

- ماشي. مين اللي قتلك؟

- هو أنا اللي ها عرف؟

- أومال أمي؟! ما تنطق يا ابني، مين اللي قتلك؟

- أنا لو فاكر هاقول. بس أنا ما كنتش شايف قدامي.

- اتقتلت في الضلمة؟



- لأ يا لورد، اتقتلت وأنا ضارب جرامين ونص.

* * *

تركت قطز ينام مشخرًا، وأخذت روح ميدو ونزلنا نجوب بسيارتي الشوارع المزدحمة، فأنا لا أحادث الأرواح ولا أسمح لها بالبقاء كثيرًا في منزلي.

اندفعت الكلمات من فم ميدو كالطوفان الجارف، وراح يثرثر كطفل لم ينصت له والداه دقيقة واحدة في حياتهما:

- أنا كنت مبطل خلي بالك. والله كان بقالي أسبوع نضيف، بس هي ساعة القدر يا لورد. هو ربنا كان عايزني أفضل مبطل وفجأة تيجي الشوقة في الليلة دي عشان هي دي الموتة المكتوبة ليَّ. هي إرادة ربنا.

- إرادة ربنا؟!

- أيوه ربنا. إنت ملحد ولا إيه يا لورد؟!

- بس يله بطل هطل! وما دام إنت مبطل، إيه اللي خلاك تضرب تاني اتنين جرام ونص كوكايين بحالهم؟

- مش فاكر ... فيه حاجة صدمتني. عرفت معلومة وترتني.

- كنت في البيت؟

- أيوه، تقريبا ... أيوه أيوه في البيت، أنا متأكد.

- ومحدش شافك؟



- ما أنا كنت فوق السطح، يبقى كده أكيد أنا اتقتلت فوق السطح.

- إنت ليه مصمم إنك اتقتلت؟

- أمي هي اللي قالتلي إن اللي بيتقتل روحه بتفضل محبوسة على الأرض.

- قالتلك كده فين؟

- في الحلم.

توقف عن الحديث وراح ينظر من النافذة يتدبر شيئًا ما بنظرات تعيسة، فانتشلته من حزنه قائلا:

- الكلام ده مش حقيقي، كلنا روحنا بتفضل أربعين يوم على الأرض أيا كانت الطريقة اللي متنا بيها، فمش ضروري تكون اتقتلت، يمكن تبقى ميت أوفردوز.

- يا لورد أنا مش هاوي، أنا ضريب بقالي ثمان سنين وعارف باعمل إيه وظابط الجرعة!

- آسف، ما كنتش عارف إن معاليك شمام بروفيشنال

- اتريق براحتك، بس أنا لو مت أوفردوز كان زمانهم لقوا جثتي. إيه اللي يخلي جثتي ما تظهرش كل ده إلا لو كان فيه حد متعمد إنها ما تظهرش؟

- حد زي طماشة؟

- طماشة ابن ستين كلب، بس مش هيقتلني، لأني لو مت بضاعته مش هترجعله.



- إنت سرقت منه الفلوس ولا البضاعة؟

- ما تقولش بس سرقت أنا ضيعتها.

- إزاي؟

- ما أنا لو فاكر ما كانش بقى ده حالي.

- يا ابني ما تقرفش أهلي! ما هو محدش هيقرر يقتلك ويخبي جثتك إلا لو عنده دافع. إنت أذيت مين؟

- يا لورد الكارهين اللي يتمنوا وقوعي كتير.

- ليه يا أخويا؟ نجيب ساويرس؟!

سيبك من هيئتي دلوقت، تعال شفني أيام خيري، أنا كنت مية وأربعين كيلو عز وفخامة والله، الألافات كانت تقع من جيبي ولا أحس، ده غير دماغي الألماظات. أنا كان عندي مشاريع ميكانيكا هتنقل محركات الموتوسيكلات نقلة تانية خالص، اسأل صباح، أنا كان فاضلي خطوة وأتاخد في فريق ميكانيكا هارلي ديفيدسون.

- وإيه اللي لطك اللطة الشمال دي؟

- نظر أمامه وغرق في أفكاره الحزينة مجددًا إلى أن انتشله صوت محرك دراجة نارية يخترق ضجيج الشوارع. كان مقعد الدراجة منخفضًا، وراكبها صاحب البشرة الفاتحة والشعر الطويل الذي يطير من أسفل خوذته مع الرياح، ترتفع يداه وصولًا إلى المقود العالي. لا شك أن كتفي الراكب تقتلانه ألما كلما قاد تلك الدراجة النارية الأنيقة.

تمتم ميدو وهو يحدق إلى الدراجة النارية كأنها أكثر نساء الكون إثارة:

هارلي ديفيدسون في رود سبيشال، ١٢٥٠ سي سي تبريد مائي، عزم الدوران ٨٤ رطل في القدم، قوة ١٢٥ حصان، بتنافس التصميم الياباني، ومناسبة لهواة المنظرة الفارغة.

لم أفهم أيا من تمتمته وهمسه لنفسه، فقاطعت هذيانه قائلا:

- رؤوف اللي قتل لؤي؟

- طب تشك في إنه قتلني أقولك ماشي، إنما يقتل ابنه؟!

- ده لو كان ابنه.

- إنت بتقول إيه يا لورد هو مين فينا اللي مسطول؟

- مصمم تنكر ابنك وإنت حي ووإنت ميت؟

- لؤي ابني أنا؟ طب إزاي؟! دي هي كانت مرة واحدة بس بيني وبين يمنى يوم ما كنت ضارب....

صمت قليلا وهمس لنفسه وحسب على أصابعه، حتى توصل إلى استنتاجي الذي سيؤكده تقرير الطب الشرعي بعد ساعات.

ضرب جبينه بكفيه وراح يلوم نفسه:

- يلعن الساعة! ده اللي يمنى قالته وإحنا على السطح وخلاني أنتكس تاني.

- إمتى؟



- يوم ما اتقتلت.

- حد سمعكم؟

- يا نهار إسود! يعني أنا وصباح بقالنا عشر سنين بنحاول نجيب حتة عيل للدنيا، وفي ليلة شيطان يبقى عندي عيل؟! عيل مكتوب على اسم أخويا؟!

راح يحدث نفسه بصوت خافت غير مفهوم ليتدارك الصدمة، ثم قال:

- مين اللي عارف؟ رؤوف أو صباح عرفوا؟ أبويا عرف؟

- محدش عارف حاجة لسه. بس تقرير الطب الشرعي هيكون مكتوب فيه.

لكم نفسه ولطم وجهه كالمجنون قائلا:

– نجس بالوراثة! نجس بالوراثة!

- اهدا طيب، خلينا نفكر.

- أنا ما كنتش في وعيي! ما كنتش عايز حاجة رؤوف جدع معايا وساند ضهري إزاي عملت فيه كده؟! أنا باحب صباح! أنا حيوان! حيوان!

سب نفسه ثم صاح في وهو يلهث:

وقف العربية! وقف العربية!

- لا أدري سبب طلبه، فهو يستطيع المرور عبر الباب من دون الحاجة إلى توقفي وفتحه، لكنه كان في حالة هستيرية فاضطررت إلى أن أجاريه فحسب.



صففت السيارة على جانب الطريق، بينما ظل ميدو يسب ويلعن نفسه ويلكم صدره ويصفع وجنتيه، حتى خرج من السيارة وابتعد باكيا صائحا نائحًا، ليتركني بمفردي أشعر بمشاعر مختلطة من تأنيب الضمير والشفقة عليه.

* * *

استيقظ قطز وسبقني إلى القسم فاتجهت إليه لفحص الأدلة المبدئية للقضية وأنا أفكر في حال ميدو، وكيف تحوّل من مهندس ميكانيكا لامع إلى مدمن كوكايين خائن لأخيه ولزوجته.

كانت ملفات القضية على مكتب قطز، ويجلس قبالته صلاح وعلى وجهه تعبيرات إنسانية دخيلة عليه، فقد كنت أظن أن تعبيرات مثل الحزن والقلق لا يألفها حلوف مثل صلاح.

جلست عند مكتب قطز على الكرسي المقابل لصلاح وأنا أقول:

- خير؟

قرب قطز مني ورقة من ملف المعمل الجنائي، فابتسمت رغما عني فور أن قرأتها .

كما توقعت تمامًا، أرفقت في تقرير المعمل الجنائي نتيجة اختبار الحمض النووي الذي أثبت أن لؤي ليس ابن رؤوف، لكن الميتوكوندريا تثبت أن بين

لؤي ورؤوف قرابة من جهة الأم، أي أن لؤي ابن شخص يقرب لرؤوف، فلا حاجة إلى الكثير من الاستنتاج للتوصل إلى نتيجة أن لؤي ابن ميدو.



قال صلاح:

- ميدو يعمل كده في أخوه اللي آويه وصارف عليه أكل وشرب ولبس وعلاج؟! يسيبه يكتب ابنه باسمه وبنت الحرام التانية تطاوعه؟!

- ما كانش عارف إنه ابنه.

- مين اللي قالك؟

بالطبع لن أخبره بأن روح ميدو هي التي أخبرتني بذلك.

- أسماء قالتلي إن يمنى بس هي اللي كانت عارفة، وعمرها ما واجهت ميدو بالحكاية دي.

راح صلاح يقلب في الملف، ثم سحب ورقة ألقاها نحوي قائلا بنبرة عتاب:

- سبب وفاة الواد الموت خنقا. بطنه مفيهاش عنب التعلب، ياكش تهبط يا بهيم منك له!

صلاح اللعين على حق، لا أظن أن صباح لها دخل في قتل لؤي أو ميدو من البداية، وما أكد ذلك لي هو صفحها عن يمنى في لحظاتها الأخيرة. من لديه هذا القدر من التسامح، لا يملك في قلبه ما يكفي من القسوة لإنهاء حياة إنسان مهما بلغ إيذاؤه له.

علَّق قطز بحساسيته المعتادة:

- هو إنت ليه محسسنا إننا بنحاول نورط صباح؟!



- عشان إنتو الاتنين من ساعة ما مسكتوا القضية دي وإنتو عاملين زي التعلب اللي ما طالش العنب.

لم أفهم معنى السبة، ولم أهتم بالسؤال عنها. ومع ذلك، نظر صلاح نحوي وسألني وهو يطرق بقبضته الضئيلة على مكتب قطز:

- عارف عنب التعلب اسمه عنب التعلب ليه؟

لم أجبه، فالتفت إلى قطز قائلا:

- ولا إنت يا بحر العلم؟

- منكم نستفيد.

- أمي، الله يرحمها، كانت بتقولنا إن كان فيه تعلب جعان مش لاقي حاجة يصطادها ولا يقطفها لحد ما شاف عنب أخضر على غصن شجرة عالية، فضل ينط ويحاول يوصله ما عرفش، قام قايل ده عنب أخضر ومر ما يتاكلش. فكرك العنب كان فعلا مر، ولا التعلب عشان قليل الحيلة قرر يجيبها في مرارة العنب؟

كان من الممكن أن أرد عليه ردا يفحمه، لكنني وضعت نفسي مكانه، تخيلت لو أن نادية تعرضت للخيانة من زوجها تحت سقف بيتها، ثم وجدت ضابط مباحث سخيفًا يشتبه فيها في تهمة قتل مزدوجة.

لو كنت مكان صلاح ما اكتفيت بالتهديد والوعيد والسب، بل كنت سأرتكب جريمة ما لحماية أختي.

- قلت لصلاح:



- ماشي مقبولة منك.

نهض عن مقعده قائلا:

- أنا هاروح أتطمن على العيلة وأشوفهم لو محتاجين حاجة. يا ريت محدش فيكم يتذاكى ويقرب من البيت. بالراحة على الناس، وبلاش قلة قيمة عشان اللي فيهم مكفيهم!

أجابه قطز بحساسية لا داعي لها:

- عايز تقول يعني إننا قللات الذوق؟

- أنا مش عايز يا نسكويك، إنتو فعلا عيال ناقصة ربابة!

كاد يتركنا ويخرج من الغرفة لكنني استوقفته قائلا:

- صلاح، فكرك مين اللي قتل لؤي؟

نظر إلي للحظة ثم قال:

- زي ما إنت بتقول، فيه سيناريو كده في دماغي، لما أتأكد منه هابقى أقولكم.

غمز بعينه ثم خرج من الغرفة، وتركنا نفكر فيما قاله.

نظر قطز إلي باستغراب قائلا:

- إنت مستوعب اللي اتقال ده؟

- صلاح بقى بيفكر ويرسم سيناريوهات؟!



- مش دي صدمتي، صدمتي إن أم صلاح كانت بتقرأ لإيسوب!

- لمين يا أخويا؟

- الحكيم الإغريقي إيسوب صاحب حكاية العنب والتعلب. أم صلاح كانت مثقفة؟!

تجاهلت اندهاش قطز، وعدت لتصفح ملف المعمل الجنائي. التحليل المبدئي يشير إلى أن سبب وفاة لؤي هو الخنق بالضغط على الأنف والفم وليس خنق العنق، أما يمنى فسبب الوفاة هو انتحار لغياب أي علامات مقاومة إلى جانب شهادة فريق المعمل الجنائي الذين شهدوا مشهد انتحارها.

استرجعت المعلومات الضئيلة التي جمعناها عن تلك القضية هناك حلقة ناقصة شاهد غائب، معلومة مجهولة. أغمضت عيني ورحت أحلل كل شيء في ذهني، حتى صرت وحيدًا مع أفكاري.

شعرت باهتزاز الهاتف في جيبي فخرجت من حالة تركيزي التام وانقطع حبل أفكاري.

أخرجت الهاتف من جيبي لأجد اسم دليلة أعلى الشاشة حيث قررت أخيرًا أن تحادثني بعد آخر مشادة بيننا. في تلك الفوضى التي أمر بها كنت بحاجة إليها حتى وإن كنا سنتشاجر.

- آلو.

استقبلت لهفتي بنبرة جافة أمقتها:

- العربية عطلت بي عند كوبري قصر النيل، هتيجى ولا أكلم ميكانيكي؟



١٠

قلة زحام كوبري قصر النيل في هذه الساعة المتأخرة كانت الميزة الوحيدة في تلك الليلة المشؤومة.

كانت سيارة دليلة الجوك الزرقاء تقف في منتصف الكوبري بكبوتها المفتوح بلا داع، وقد وقفت دليلة بجوارها تقرض أظافرها بتوتر، على الرغم من أنني نبهتها للبقاء داخل السيارة، لكنها تميل إلى التمرد كلما اختلفنا.

صففت سيارتي خلفها ثم نزلت وأنا أسألها:

- إيه اللي حصل؟

- مش عارفة، مش راضية تدور.

جلست في مقعد السائق وحاولت أن أدير المحرك، لكن السيارة تمردت مثل صاحبتها.

- البطارية عايزة تتغير. العسكري جاي بالميكانيكي ورايا. هاوصلك وأبقى أرجعلك العربية لما تتصلح.



هزت رأسها بفتور وتركتني أحكم إغلاق سيارتها وأتأكد أنها أخذت متعلقاتها الشخصية منها.

- معلش. هاتعبك.

- بلاش كلام الكرافتة والبابيونة ده الله يباركلك. جاية منين دلوقت كده؟

- دكتور السنان.

- ده يعني اللي مقريفك؟

- ما باحبش الطريقة دي يا نوح. مش لازم تقزم مشاعري. تمدد حجم بوزها وزفرت بضيق، فزفرت أنا الآخر ثم آثرت الصمت، فلا مساحة لأي نقاش عقلاني معها الآن.

- إيه اللي مخربش رقبتك كده؟

نظرت إلى المرآة فوجدت خدشا عميقا لم أنتبه له، ولا أذكر حتى إن كان سببه شجاري مع رؤوف، أم أنه إثر الزجاج الذي تناثر علي وأنا أحمل جسد يمنى بعد انتحارها.

خناقة مع رؤوف.

لسه ما لقيتوش ابنه؟

لقيناه مقتول وأمه اتصدمت وانتحرت!

حدقت إلى مصدومة، فقلت لها:



- شفت بقى إن الحياة فيها أسباب تعكنن علينا عيشتنا أكبر من هنعيش في المعادي ولا في جاردن سيتي؟

شعرت بوطأة الحزن في الأجواء، فلم أرد أن تأسرني ظلمة الأحداث التي مررت بها خلال اليومين الماضيين، فزفرت بعمق ثم مددت يدي لأشغل أغنية لحكيم حتى أكسر الصمت الثقيل المهيمن على السيارة، لكن استوقفني أنين دليلة. كانت تبكي بكاءً هستيريا كأن مصيبة حلت عليها فجأة.

أصبت بالذعر، فأنا لم أرها تبكي هكذا من قبل، لذلك صففت السيارة وأنا أربت على كتفها وأكرر كالأبله:

- مالك؟ فيه إيه؟

غطت وجهها براحتيها، وظلت دموعها تتسلل من بين أصابعها وهي ترتعش.

ربت على ظهرها ورأسها وأنا أردد الكلمات نفسها، لتكون هذه المرة الأولى التي أعجز فيها تماما عن فك شفرتها أو تحقيق ما قد يُشعرها بالسكينة.

- ما كانش قصدي أقولك حاجة تضايقك! أنا آسف!

سمحت لي أن أضع ذراعي حول كتفيها وأضمها إلى صدري وهي ما زالت تبكي.

ظلت على هذه الحال لبرهة حتى هدأ أنينها، وأخذت مناديل السيارة لتمسح دموعها المختلطة بكحلها الأسود السائح وهي تقول:

- أنا مخنوقة... إحنا فرحنا كمان أربع شهور ولسه ما اتفقناش !



- إزاي؟ إحنا متفقين على كل حاجة. متفقين على مين هيجيب النيش والسجاد؟ فيه حاجات تانية كتيرة ما اتكلمناش فيها، زي هنخلف ولا لأ؟ هنبقى بنسهر ولا بننام بدري؟ هننام في الضلمة ولا على نور الأباجورة؟ إزاي هنتجوز كمان أربع شهور وإحنا لسه ما اتفقناش على...

- على نور الأباجورة؟!

زفرت مجهدًا ومحبطاً من هذا الحديث العبثي، ثم علقت - دليلة، إنتِ بتعيدي التفكير في جوازنا؟ عاملة حكاية إنك عايزة تعيشي في المعادي دي عشان تأجلي ميعاد الجواز، ولا ناوية تعملي زي الأمريكان وتهربي يوم الفرح؟

- أنا يا نوح؟!

- مش لاقي تفسير تاني. الدنيا كانت ماشية كويس، وأنا باحاول أشتغل على نفسي، وأغير الحاجات اللي كانت بتسبب سوء تفاهم بينا، بس إنت ماسكة طريق الغموض وسايقة... أنا مش طالب منك حاجة غير إنك على الأقل تقوليلي فين المشكلة عشان أقدر أحلها معاكي.

المشكلة إن الحياة صعبة، وكل حاجة بتتغير بسرعة.

قالت تلك الجملة المبهمة وصمتت، فتركتها تجمع شتات أفكارها لتكمل حديثها وعيناها تلمعان بالدموع:

– كل حاجة حوالي بتتغير غصب عني. هاسيب المنطقة اللي طول عمري عايشة فيها، هاسيب الشغلانة اللي ما أعرفش غيرها، ...هـ

- إنتِ اللي عايزة تتخلي عن شغل الأوبرا بمزاجك، محدش جابرك.



مسحت دموعها ثم قالت بنبرة فاترة:

- عندك حق كله بمزاجي.

- اللهم طولك يا روح.

شردت وظلت تنظر بعيدا من النافذة، بينما أعدت تشغيل المحرك وأكملت طريقنا.

لم تكن لدي طاقة لمجادلتها أكثر من ذلك. رحت أصنع لها الحجج بأنها تغالي في مشاعرها بسبب وطأة تمارينها بالأوبرا وألم أسنانها. لم أود أن أضغط عليها أكثر من ذلك، فأوصلتها حتى بيتها ثم جلست وحيدا في السيارة لبضع دقائق.

كنت مجهدًا ومرهقا، وأود أن أبتعد قليلا عن القتل. والانتحار والخنق، وعن كل ما له صلة بعملي في المباحث ولو لساعة أذكر فيها نفسي بأنني إنسان طبيعي لديه حياة عادية تخلو من الدماء والقتل، لذلك قررت أن أستعين بخبراء الحياة العادية الرتيبة.

* * *

طرقت باب شقة نادية، شقيقتي، ففتحه زوجها طارق بابتسامته البشوش، لكن الغريب أنني لم أسمع صياح نادية من خلف الباب كالعادة.

سألته وأنا أدخل:

- نادية نامت ولا إيه؟



- لأ، قاعدة جوه.

- إيه الصمت ده؟ قتلتوا العيال ولا إيه؟

ضحك ضحكته الطفولية البلهاء التي تهتز لها قامته الفارعة، ثم قال:

- لأ لسه. بس الحمد لله، العيال بدأوا يستجيبوا ويلتزموا بمواعيد نومهم.

- في الأجازة؟

- شفت الإعجاز!

- قصدك شفت الإرهاب! نادية هددتهم بإيه عشان يلتزمواويناموا بدري؟

- بلاش تعرف التفاصيل عشان ما تبقاش شريك في الجريمة.

- هي فين؟

- في أوضة السفرة، أنا وهي استغلينا نوم الولاد عشان نشتغل على الرواية الجديدة.

- بتكتبوا إيه المرة دي؟

- بنكتب رواية اسمها «بيض عيون»، عن سفاح وآكل لحوم بشر بيحب ياكل البيض بعيون البشر و....

قاطعته قبل أن يشاركني مزيدًا من التفاصيل المثيرة للغثيان:

- بس الله يقرفك!



نهيته عن مشاركتي مزيدًا من تفاصيل روايتهما المثيرة للغثيان في طريقنا إلى غرفة السفرة التي فاحت منها رائحة مشروب القرفة باللبن الذي يتغذى عليه إبداع نادية وطارق.

كانت نادية تجلس إلى رأس الطاولة وأمامها حاسوبها المحمول يجطارق على يمينها.

رمقتني بغضب مألوف وهي تقول بصوتها الرفيع الحاد:

- لازم يعني ترن جرس الباب وتقطع حبل أفكاري؟

- أومال هتعرفي إني بره بالخاطر؟!

- هنستظرف؟

- والنبي تهدي عشان أنا الدنيا بقالها يومين مدياني على عيني، وحياتي بقت أتعس من حياة بائعة الكبريت.

سألتني بقلق:

- يا حبيبي إن شا الله اللي يكرهوك! مالك؟

جلست قبالتها، بينما عاد طارق إلى مقعده بجوارها، فقلت وأنا أشعل سيجارتي:

- كل حاجة بتتعك حوالي، الشغل وتحضيرات الجواز، وفيه شوية نكد غير مبرر دليلة بتمارسه علي، فقلت آخد نصيحتك بما إنك أنثى وكده.



رويت لها ما صار من مجادلات عجيبة خلال الأسبوع الماضي مع دليلة، فتركت ما كانت تكتبه واستمعت إلى بانتباه، وكانت تسألني تارة وتعلق تارة أخرى إلى أن اختتمت حديثي قائلا:

- عصبيتها وتوهانها دول مش من طبعها. وبعدين بتقولي متوترة عشان ميعاد الجواز قرب. طب ما هي اللي كانت مستعجلة وعايزانا نتجوز. أنا بافكر أأجل ميعاد الفرح خالص، كده هاكون باهدي من توترها.

- كده هتكون حمار يا حبيبي يا ابني افهم، التوتر ده بسبب حالة التغيير اللي هي داخلة عليها. أسلوب حياة الست بيتغير ١٨٠ درجة بعد الجواز.

هتسيب أهلها وهتبقى مسؤولة عن بيت وراجل وأطفال في منطقة مختلفة عن اللي اتربت فيها. حط ده مع توتر شغلها، أكيد هتمشى تشد في شعرها.

- والحل؟

- مش كل. حاجة في الدنيا لغز. محتاج حل. أحيانًا بنبقى عارفين الحل ومش عايزين غير إننا نفضفض ونعيط شوية ونسمع كلمة طيبة، مش إن يتحقق معانا عشان نوصل لنتيجة.

كادت تكمل حديثها، لكننا سمعنا عطستين متتاليتين من غرفة ابنيها التوأمين ياسر ويحيى.

صمتت نادية فجأة، ثم همست إلى نفسها بعصبية:

- يا ولاد الكلب بتستهبلوني!



نهضت عن الطاولة تسب وتلعن، ثم ا اتجهت صوب غرفة التوأمين وهي تضرب الأرض غضباً بقدميها الصغيرتين.

سألت طارق الذي أكمل شرب القرفة باللبن بسلام كاهن في هضبة التبت:

- هي قفشت منين إنهم صاحيين؟

- عطسوا.

- وإيه يعني؟

- الواحد لما بينام أغشيته المخاطية بتنتفخ وجسمه بيدخل في حالة « shut down» بتخلي العضلات في حالة أشبه بالشلل، فمش هتعرف تعطس إلا لو كنت صاحي وعامل فيها نايم.

عقلي تشبث بتلك الكلمات: «صاحي وعامل فيها نايم»! تلك الجملة المقتضبة جعلتني أدرك أنني كنت أسير في الاتجاه الخطأ منذ البداية.

إن أفضل التفسيرات هي في الغالب أبسطها، فلماذا أخذت أدور في حلقات مفرغة أفكر في تفاصيل لا نفع منها، بينما الأمر كان واضحًا وضوح الشمس منذ الوهلة الأولى.

الآن فقط وجدت القطعة المفقودة لحل الأحجية، فمنذ أن بدأت تلك القضية، لم يكن هناك سوى شخص واحد دائما ما يكون نائما في غرفته كلما أصيب آل رشيد بمصيبة!



١١

معرفة المجرم الحقيقي قد تكون يسيرة، لكن إثبات جرمه بالأدلة والبراهين شيء شديد التعقيد. لذلك، لم أمهل نفسي دقيقة واحدة بعد لحظة الإلهام التي واتتني ومكنتني من حل اللغز.

اتصلت بقطز مرارا وتكرارا لكنه لم يرد، فاضطررت إلى أن أتصل بالقسم لأسأل عنه، فكانت الإجابة أنه عاد مرهقا إلى البيت.

أسرعت إلى بيتنا واقتحمت غرفتي التي خرج منها شخير قطز. أضأت النور وناديته بإلحاح فانتفض من نومه العميق وقال مفزوعا:

- فيه إيه؟ البيت بيقع ولا إيه؟

- يا عم اصحى، لازم ننزل. أنا عرفت مين اللي قتل ميدو.

دعك عينيه، وقابل حماسي بفتور قائلا:

- صلاح؟

كان نفسي بس جهاز الاتصالات حددوا آخر مكان استقبل فيه ميدو مكالمة. لما ميدو اتصل ببياضة يطلب منه ساندويتشات الكبدة كان في بيتهم. يعني



مش في الغردقة زي ما أبوه قال لبياضة. بياضة هو آخر حد ميدو كلمه قبل ما يتقتل.

قصدك بياضة هو اللي قتل ميدو؟

قصدي تقوم تتشطف وتفوق عشان نعرف نتفاهم.

* * *

وصلت إلى السطح بأنفاس لاهثة.

اللعنة على التدخين، مرة أخرى!

طلبت من قطز أن ينتظرني عند السلم حتى أدخل أنا أولا. وأمارس طقسًا أقسمت على الانقطاع عنه منذ خمسة أشهر، لكن الطبع يغلب التطبع كما قالت حماتي.

أخرجت من جيبي ليمونة صفراء نضرة وسكينًا صغيرة. اتبعت التعليمات التي نقلتها إلي روح تلك البدوية التي قابلتها في مقبرة جبل الموتى في سيوة حين كنت في الثامنة من عمري، وعلمتني كيف أتواصل مع أرواح الموتى وأكسب ثقتهم وآمن غدرهم.

أخذت نفسًا عميقا، ثم شققت الليمونة نصفين، ووضعت نصفًا في منديل ألقيته في جيبي، وأبقيت الثاني في راحة يدي.

ظل ذهني يتأرجح بين جميع النظريات التي توصلت إليها مؤخرًا في تلك القضية السخيفة، وحين انتبهت لذلك، أجبرت نفسي على التوقف عن



العصف الذهني، فمن آداب استقبال روح الميت أن تصفي ذهنك عند مقابلته.

بعد ثوان، شعرت ببرودة خفيفة اقشعر لها بدني، فراقبت الليمونة تجف ويتغير لونها ببطء. تلفت حولي بهدوء خفقان قلبي ورجفة عظامي التي لا تقل على الرغم من عدد أرواح الموتى الذين تواصلت معهم خلال العقدين فازدادت البرودة وغزت أنفي رائحة مسك ثقيلة. تجاهلت خفقان قلبي ورجفة عظامي التي لا تقل على الرغم من عدد أرواح الموتى الذين تواصلت معهم خلال العقدين الماضيين.

جفت الليمونة تمامًا وصار لونها داكنًا، فالتفتُ خلفي لأجد ضيفين، يمنى تحمل رضيعها.

اللعنة! أكره أرواح الرضع!

بكت روح لؤي، وكاد عقلي ينفجر داخل جمجمتي، طاقة مهلكة تضغط على الأعصاب والآذان، فلبكاء الرضع طاقة مهلكة ألعن من أن تلمسك مائة روح في اللحظة نفسها.

وضعت يدي على أذني، بينما وقفت يمنى أمامي تبتسم وتهز ذراعيها لتهدهد صغيرها، ثم عبرت من الباب المؤدي إلى سلالم السطح فغابت عني ومعها بكاء رضيعها المميت.

سرى العرق البارد في بدني، فمسحت جبيني وأنا ألهث حتى تنتظم ضربات قلبي بعد تلك المفاجأة.



اللعنة على الليمون وعلى الأرواح وعلى تلك القدرة التي ستقودني إلى قبري عاجلا أو آجلا!

سمعت صوتًا خاملًا مألوفًا يقول من خلفي:

- مالك يا لورد؟ إنت كمان هتموت ولا إيه؟

التفت خلفي لأجد أن المتحدث ميدو، فسألته:

- يمنى وابنها...

- محتلين السطح من المغرب. بس إنت إيه اللي جابك هنا؟

- توصلنا إلى أن جريمة قتلك حصلت هنا، فعايزينك تحاول تفتكر معانا التفاصيل، بس من غير ما تلمسنا وشغل العيال ده. اتفقنا؟

- اتفقنا يا لورد.

مد الأبله يده ليصافحني، فنظرت إليه شزرًا فأدرك غباءه وأنزل يده.

فتحت الباب وسمحت لقطز بالصعود إلى السطح، وبدأت رحلة البحث عن دليل.

* * *

ظل قطز يتثاءب ويفرك عينيه مع أذان الفجر، وأنا أبحث في كل ركن فوق السطح عن أي دليل. كنت آمل أن يُسهل ميدو علينا عملية البحث، لكنه استوقفني فجأة قائلا:



- أنا افتكرت حاجة، اليوم ده كان فيه قطة فوق السطح.

افتكرت، اليوم ده أنا كنت متغدي بامية باللحمة.

افتكرت، الجيران كانوا مشغلين أم كلثوم.

الأحمق تذكر أغاني الجيران، لكنه نسي أين استخدم هاتفه للمرة الأخيرة!

إن كانت آخر إشارة لقطها القمر الصناعي لإرسال هاتف هذا المنزل، فهذا يعني أن قاتله أغلق هاتفه ميدو من وخبأه هنا.

سألني ميدو بصوته الخمل:

- إشمعنى فوق السطح؟ ما يمكن التلفون كان في أي حتة تانية في البيت، القمر الصناعي مش هيحدد الإشارة اتلقطت من أي دور بالظبط.

- بياضة وصباح أكدوا إنك كنت فوق السطح. ده التسلسل المنطقي الوحيد.

- أيوه. أنا فاكر إني فعلا كلمت بياضة.

- طب كنت قاعد فين؟

أشرت إلى المصطبة الأسمنتية ذات الألوان المبهجة أسفل البرجولة الخشبية:

- على الكنبة دي؟

أجابني مذعورًا:

- مستحيل! أنا عمري ما أقعد على الكنبة دي أبدا!

- إشمعنى؟

أجابني منفعلا:

- أهو كده!

أسند قطز ظهره إلى السور بجوار قصاري الزرع وأدوات تقليمها، فقال ميدو بنبرة أهدأ:

- أنا تقريبا كنت قاعد على السور مكان صاحبك كده.

نظرت إلى قطز فتوتر قائلا:

- فيه إيه؟ المرحوم هيكهربني تاني ولا إيه؟

- بيقول إنه كان مكانك.

- طب ما تخليه يقولنا اتقتل إزاي؟

- الباشا مش فاكر ... إيه في السطح ده ينفع كأداة جريمة؟

تثاءب قطز مجددا، ثم طارت ذبابة خضراء ممتلئة الحجم أمامه فسبها وهو يبعدها عنه، ثم نظر بجواره إلى أدوات الزراعة ليجد ذاك التجمع المقزز حول منجل الزراعة اليدوي الصغير.

راح يحدق إلى الذباب وينظر إلى المنجل من كثب بملامح مشمئزة من دون أن يساعدني في البحث عن أي دليل، فصحت فيه:

- كنت سيبتك تشخر في البيت ما دام كده كده مش هتساعدني!

– الدبان ده أخضر! تعال بص.

مشيت إلى جواره يتبعني ميدو، بينما أكمل:

- الدبان ده من أول مرة جينا فيها السطح وهو متجمع على المنجل ده بس!

نظرت إلى ما ينظر إليه ورفعت كتفي مستفهما، فقال:

- والله عيب عليك.

- يا عم انجز!

- الدبان الأخضر بيتغذى على جزئيات الدم اللي العين المجردة مش بتشوفها على أي أداة حتى لو اتنضفت كويس.

أخرج من جيبه كيس الأدلة الشرعية البلاستيكي الصغير، وقفازا ارتداه، ثم التقط المنجل الصغير بقفازه ووضعه داخل الكيس وأحكم غلقه، ثم رفعه أمام وجهي قائلا:

– أنا متأكد لو حللنا المنجل ده هنلاقي عليه دم ميدو.

راقبت ميدو وهو ينظر إلى المنجل ويستجمع أفكاره، ثم ظهرت على وجهه ملامح الألم والحزن وهو يضع يده على الجزء الأيسر من عنقه قائلا:

- أنا فاكر الوجع. الخضة. حد طعني في رقبتي. حد كان جاي من ضهري.

- مين يا ميدو؟



سمعنا باب السطح يفتح فالتفتنا لنجد الحاج رشيد يرتدي جلبابه الأبيض وفوقه سترة سوداء ثقيلة، ويتوكأ على عكازه وبرفقته صلاح.

صاح صلاح فينا:

- هو مفيش فايدة؟ برضو جيتوا هنا من ورايا؟!

نظر الحاج رشيد إلينا بهدوء، ثم لمح المنجل الموضوع في كيس الأدلة الشرعية الذي يمسكه قطز، فسألنا بابتسامة مضيافة:

- يا مرحب يا ولاد تصلوا معايا الفجر جماعة؟

* * *

أمنا الحاج رشيد لصلاة الفجر داخل الغرفة فوق السطح. جاهدت حتى لا أتشتت في أثناء الصلاة، لكن وجود روح ميدو وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا خلف يمنى التي تحمل لؤي وتسب ميدو وتجادله حتى خرجا معًا من الغرفة، كان تحديًا حقيقيا لالتزامي.

انتهينا من الصلاة، ثم وقف ثلاثتنا عند باب الغرفة، بينما جلس الحاج رشيد على طرف فراشه بابتسامته الباردة نفسها.

حاول أن يدعونا لشرب الشاي لكننا رفضنا، فلم يكرر الدعوة وقال:

- والله آني لازم أقدم جواب شكر لوزير الداخلية، تلات ظباط زي الورد متفرغين لقضية عيلتي. طب صلاح وقريبنا وده العشم، بس إنتو يا ولاد والله على راسي مجهودكم ده.



لم نعلق.

انزعج الحاج رشيد من صمتنا فسأل صلاح:

- ألا إيه غرض الزيارة يا صلاح؟ جد جديد في القضية؟

أجابه صلاح:

- قضية ميدو ولا لؤي؟

- وهو ميدو كان له قضية؟

- ما أنا قلتلك يا حاج. أنا قلبت الدنيا على ميدو ومش لاقيه، عشان كده جيتلك تحكيلي بالتفصيل عن آخر مرة شفته فيها!

- ما دي كانت عادته يا ابني، يغطس يومين ويئب تاني.

علق قطز:

مش غريبة إن ابنك كل ده مختفي وإنت مش قلقان عليه؟!

- أنا قلقت على ميدو قلق يهد جبال وياريته كان طمر!

- عشان كده بطلت تحبه؟ لأنه ما طمرش؟

ابتسم ابتسامة غامضة، ثم سأل قطز:

- إنت عندك ولاد يا ابني؟

- لأ



- عشان كده مصدق الكلام الهايف اللى بتوع أمريكا وأوروبا بيحاولوا يملوا دماغكم بيه... التربية الحديثة، الحب غير المشروط، كإن الابن من حقه إن أهله يفضلوا يحبوه حتى لو كان اختار اختيارات دمرتهم، حتى لو كان آذاهم، حتى لو كان خانهم، حتى لو...

قاطعه صلاح قائلًا:

- الله يفتح عليك. خانهم. ميدو بقى خانكم إزاي يا حاج؟ نظر الحاج إلينا وبدا للحظة كجرذ حاصرته القطط في زاوية لا هروب منها، إلا أن للجرذان دائما طرقا للهرب. تحوّلت تعبيراته من الارتياب والقلق إلى ابتسامة خبيثة وهو يقول:

- وإحنا هنتكلم الكلام العائلي ده يا صلاح قدام الباشوات؟ لا مؤاخذة يعني، أنا راجل مش باحب أخرج حكايات داري بره.

قال صلاح كأنه لم يسمع تعليق الحاج رشيد من الأساس:

- ميدو فين يا حاج رشيد؟

- في الغردقة.

- مفيش حد ببياناته مر على أي كمين من كماين الغردقة، وجهاز الاتصالات بيقول إن آخر مكالمة ميدو عملها من تلفونه كانت هنا، في بيته.

أمعقول؟ أنا وصلاح كنا نبحث في الاتجاه نفسه!

سأله الحاج رشيد بلامبالاة:



- وإيه يعني؟

- ميدو بقاله أسبوع ما عملش مكالمة واحدة من تلفونه، مش غريبة؟

- لا غريبة ولا غيره، دي كانت عادته، كان يبيع كل شوية محمول شكل عشان يتنيل بفلوسه ... أنا مش عارف إنتو ليه سايبين لؤي اللي اتخنق وماسكين في ميدو الشحط؟!

اقترب صلاح من حمى شقيقته، وقال بنبرة ميري خبيثة أعرفها جيدا:

- إنت ليه بتتكلم عن ابنك كده يا حاج رشيد؟

- عشان كل أب عارف معدن ابنه، وميدو كان معدنه ....

- أنا قصدي على «كان» اللي عمال تقولها دي، ليه بتتكلم عنه بصيغة الماضي كأنه لا سمح الله مات؟!

عادت إلى وجهه تعبيرات الجرذ المحاصر، وقال:

- بعد الشر عنه!

جلس صلاح بجواره على الفراش ثم قال:

- إنت ليه يا حاج خليتنا نصلي معاك الفجر هنا؟ ليه ما خدتناش المسجد نصلي ورا الحاج عبده شاكر؟ مش ده اسم إمام المسجد اللي بتصلي وراه كل يوم؟

- هو بعينه، آني قلت مش هنلحق نوصل قبل الإقامة و...



- مش هنلحق نوصل ولا إنت مش عايزنا نوصله ونسأله عنك ؟

اتضحت علامات التوتر وعدم الفهم على وجه الحاج، فمارس صلاح عاداته الدرامية وراح يشرح بأسلوب مسرحي مبتذل:

- شوف يا حجوج، أنا عندي ترس في نافوخي مريحه، مابادورهوش غير للشديد القوي، الترس ده يدور من هنا وعينك ما تشوف إلا النور، بابقى ولا أجدعها محقق هوليوودي.

- الله الوكيل آني ما فاهم حاجة منك يا صلاح.

- ها فهمك، أنا قعدت أفكر، إيه المشترك بين وقت خنق لؤي ووقت موت ميدو؟ لقيت إن الاتنين اتقتلوا وقت الصلاة، وإنت في الجريمتين كنت بتصلي في المسجد جماعة، مش كده؟

- ربنا يديم علينا الالتزام.

- الغريب بقى يا حجوج إن إمام المسجد بيقول إنه ما شافكش في المرتين دول!

- هو الشيخ عبده هياخد باله من مين ولا مين؟

- إنت ما تتنسيش يا حاج. بس هنفرض إن الشيخ نسي، كاميرا المسجد مش هتنسى. إنت مش موجود في الصلاة اللي قلت إنك حضرتها جماعة لما ميدو مات ولما لؤي اتخنق!

اللعنة! صلاح لديه قدر من الذكاء؟



كاد الحاج رشيد ينهض معترضا، لكن صلاح جذبه من رسغه وهو يسأله ببرود:

- قلنا آمين؟

- آمين على إيه يا سي صلاح؟ على إنك عايز تلبسني قضية قتل ابني وحفيدي؟

- طب شوف يا رشيد، إنت عندك حق، الباشوات دول فعلا من بتوع التربية الحديثة والرفق بالحيوان، إنما أنا على قديمه وأظنك عرفت وشهدت عني كتير .... تعالالي سكة بكيفك أحسن عشان القضية لابساك لابساك!

- إنت بتهددني في بيتي يا صلاح؟!

- يعني باهددك في البيت الأبيض يا أخي!

- طب حتى لو هامشي على حكايتكم وهاقتل ميدو، ها قتل لؤي حفيدي الوحيد ليه؟

أجبته بعد عشر دقائق من تأمل وجهه كما تأملت لوحة إيفان الرهيب:

- عشان كبرياءك.

نظر قطز إلى مستفهما فأجبته:

- فيه بحث بيقول إن مرات ابن إيفان الرهيب كانت لابسة هدوم ضد أعراف القصر الملكي. إيفان عاقبها بالضرب رغم إنها حامل فأجهضت، ولما الابن



عرف اللي أبوه عمله في مراته راح واجهه بجريمته، فإيفان فقد أعصابه وقتل ابنه.

أخرجت يدي من جيبي وقلت للحاج المرتبك الذي لم يفهم كلمة مما نطقت:

- إيفان الرهيب قتل ابنه وحفيده، لأن مرات الابن خالفت العرف وفضحته، فما استحملش إن كرامته تتهان، وكلنا عارفين ميدو ويمنى هانوا كرامتك إزاي يا رشيد.

علق رشيد بابتسامة باردة:

- لا عاش ولا كان محدش يقدر يهين كرامتي!

- أنا شكيت فيك أول ما شفتك داخل على رؤوف وهو على الأرض وحضنته. عينك ما كانش فيها حزن على ابنك ولا زعل على موت حفيدك. عينك كان فيها شعور بالذنب تجاه ابنك البكري، نفس الشعور اللي إيفان الرهيب حس بيه وهو حاضن جثة ابنه.

- مش حصل!

- ضرب صلاح على فخذه ثم صاح قائلا:

هاعد واحد اتنين تلاتة، تنزل علي باعتراف مفصل.

قال رشيد بهدوء لا يتناسب مع رجل وجهت إليه تهمتا قتل عمد:



- من غير ما تعد، مش إنت عايز تفاصيل؟ المنجل اللي بتقول عليه ده لو حللته هتلاقي عليه دم ميدو عشان هو جرح نفسه بيه ليلة ما سافر، لأنه كان ضارب بودرة، وطلبت معاه يزرع قام معور نفسه. بخصوص موضوع يمنى وميدو فالله الوكيل أنا مش أستبعد النجاسة اللي بتقولها دي، الاتنين أوطى من بعض ويعملوها، بس يمنى دلوقتِ قابلت وجه كريم، ومش يصح نخوض في عرضها. أما بقى بخصوص موضوع ميدو، فالتقيتوا جثته يا باشوات؟

تبادل ثلاثتنا نظرات الخيبة، فابتسم رشيد وقال: يبقى الكلام خُلص. مش فيه جثة، مش فيه جريمة قتل، مش فيه اتهام... مش عايز أبقى قليل الذوق يا باشوات، بس شرفتوا.

نهض ليخرج من الغرفة بابتسامته المستفزة، لكن صلاح استوقفه وقال:

- طب يا رشيد، إنت مطلوب القبض عليك!

- تاني هتقولي بتهمة قتل ميدو اللي إنتو مش قادرين تثبتوا إنه مقتول أصلا؟

- إنت الزهايمر صابك يا حاج ولا إيه؟ مش لسه قايلك إني قاطرك في حوار حجة غيابك، إنت كدبت في تحقيقات رسمية، سيبني بقى أطبق القانون!

- ويطلع اسمه إيه القانون اللي بتقبض بيه على الناس بالشبه ده؟

- اسمه المادة ٣٤ من قانون الإجراءات الجنائية يا خفيف لمأمور الضبط القضائي أن يأمر بالقبض على المتهم الحاضر الذي توجد دلائل كافية على اتهامه. قدامي!

لم أتخيل قَطُّ أنني قد أقول ذلك، لكنني ممتن لأن صلاح يحفظ قانون الإجراءات الجنائية كاملا عن ظهر قلب.

حاول رشيد مقاومته وهو يقول:

- أنا من حقي أكلم المحامي بتاعي!

- محامي إيه يا أبو محامي؟! إنت فاكر نفسك في جنيف؟!

جذبه صلاح من ذراعه ودفعه للخروج ثم التفت إلينا قائلا:

- عايزكم تهدوا البيت طوبة طوبة، إن شا الله تهدوا العمارة كلها، لحد ما تلاقوا دليل على قتله لميدو.

أجبته بثقة:

- من غير هد ولا غيره، أنا هاعرف ألاقى دليل الجريمة من غير ما أشيل ورقة من مكانها.

١٢



أول شيء يفكر فيه أي قاتل بعد التخلص من الجثة هو التخلص من آثار دمائها.

منذ أن بدأت عملي ضابطًا في المباحث الجنائية رأيت البنات كثيرا من المحاولات للتخلص من بقع الدم في مسرح الجريمة: استخدام مساحيق الغسيل، منتجات الكلور ومشتقاته، معجون الملح الخشن والماء البارد، محلول بيروكسيد الهيدروجين... كلها طرق فعالة في تنظيف الدم لكنها لا تخفيه.

مهما كان عمر بقعة الدم ستبقى نسبة ضئيلة من الحديد الذي خلقه الله داخل الهيموجلوبين عالقة على السطح الذي نزفت عليه الضحية. هذه النسبة يستحيل أن تراها العين البشرية المجردة، وهنا يأتي دور اللومينول؛ تلك المعجزة الكيميائية التي صنعها لنا عباقرة الطب الشرعي بمزج الهيدرازين وبيروكسيد الهيدروجين حتى تصبح لدينا مادة تتفاعل مع نسبة الحديد الموجودة على أي بقعة دم حتى وإن نُظفت، فتجعلها تتوهج على السطح الذي سقطت عليه دماء الضحية لتنفضح تفاصيل مسرح الجريمة مهما مر عليها الزمن.

هكذا استخرجت أمرًا من النيابة، وجعلت فريق الطب الشرعي يسكب اللومينول على أرضية غرفة السطح التي يتخذها رشيد خلوة له.

رحت أتابع مساعدي حسني وهم ينتهون من سكب اللومينول بعدما أسدلوا الستائر وحجبوا مصادر الضوء عن الغرفة، ثم أشعلوا مصابيح الإضاءة فوق البنفسجية الخاصة بهم لتكون النتيجة كما توقعت تمامًا.

بقع ضخمة من الدماء منتشرة بالقرب من النضد الأبيض أسفل النافذة.



هكذا، لعب اللومينول دور المحقق الممتاز، وتمكن من كشف بقع دماء ميدو التي أريقت في غرفة أبيه.

أخذ الفريق كل الصور المطلوبة؛ بقع الدم الوهاجة عند النضد، والبقع الأخرى الأقل وهجا بالقرب من الباب حتى خارج الغرفة، ثم أشعلنا الضوء مجددًا.

قال قطز:

- لو قتله هنا، يبقى ودى الجثة فين؟ مستحيل يكون راجل على عكاز في السن ده قدر يشيل الجثة لوحده وينزل بيها من غير ما يلفت نظر حد!

- الجثة ما خرجتش من الأوضة أصلا!

نظرت صوب النضد الذي بناه رشيد بعد اختطاف لؤي أو بمعنى أدق ليلة مقتل ميدو.

سألت حسني:

- رفعتوا البصمات من على الكورنر ده؟

- حصل.

أشرت إلى العساكر:

- هدوه.

استغربوا أمري لكنهم نفذوه بلا نقاش.



لم يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق لهدم الجدار الأسمنتي الذي كان يخفي الإجابات كلها.

بين السور المهدوم وحائط الغرفة، كان هاتف ميدو مغلقًا ومهشما وملقى بجوار جثته الجافة المصبوب عليها الأسمنت السائل الذي امتص عصارة الجثة فتحنطت كمومياوات الأجداد.

انبهر الجميع بهذا القبر الأسمنتي منزلي الصنع الذي لم يلحظه أي ممن دخلوا هذه الغرفة طيلة فترة التحقيق.

تفحص فريق المعمل الجنائي جثة ميدو، وراحوا يصورون تفاصيلها ويدونون ملاحظاتهم.

في تلك الأثناء، بقي ميدو واقفًا بجواري يراقب جثته ويبكي مرددًا:

- دفنتني زيها يا ابا!

نظرت إليه مفكرًا:

تلك البقع الأقل وهجًا عند الباب هي دماء أقدم من دماء ميدو، قد تعود إلى بضعة أعوام.

وقفت عند العلامة الدالة على وجود البقع وراجعت ملاحظات حسني حولها، وهكذا اتضح لي كل شيء.

طلبت من الفريق سكب المزيد من اللومينول في اتجاه تمدد بقع الدم قليلة التوهج خارج باب الغرفة فكان ما توقعته.



يبدو أن صاحب الدماء كان ينزف وقد سُحل خارج الغرفة بدمائه إلى مكان المصطبة الأسمنتية المغطاة بالوسائد الملونة والغطاء المزركش أسفل البرجولة الخشبية.

تشابه تصميم المصطبة التي تنتهي عندها بقع الدماء مع تصميم النضد الذي دفن ميدو بداخله دفعني إلى أن أمر فريق المعمل الجنائي برفع البصمات والأدلة من عليها، ثم جعلت العساكر يهدمونها.

هكذا، وجدت بداخلها ما توقعته!

كنت مخطئًا في تحليلي السابق، إيفان الرهيب لم يقتل ابنه لأنه تجرأ على السماح لزوجته بالسير بملابس خليعة في القصر، لم يقتل ابنه بسبب الشرف والعار وكل تلك الترهات، لقد قتل ابنه الذي واجهه بجريمة ضرب زوجته إلى حد أنها أجهضت وفقدت ابنهما.

هذا ما فعله ميدو الذي يبدو أنه كان يعلم ما يوجد بداخل هذه المصطبة الأسمنتية وواجه أباه به.

جثة امرأة تحنطت داخل الأسمنت الذي سكبه زوجها فوقها منذ ثماني سنوات حين علم أنها تخونه مع فتى في سن ابنهما، ثم أبلغ الجميع أنها هربت مع عشيقها وطلقها غيابيًا، بينما هي في حقيقة الأمر جثة محنطة لم تغادر سطح بيتها!

* * *

إنها حال الدهر، كلنا نبدو على ما يرام حتى نُسأل سؤالا عميقا واحدًا.



فقط اسأل أي شخص هل حققت ما كنت تحلم به في طفولتك؟ هل تمارس المهنة التي كنت تنشدها؟ هل تزوجت من حبك الأول؟ اسأل سؤالًا واحدًا يتيح لنا فرصة التوغل في ذكرياتنا الحزينة، وسترى كيف نسقط كالجبال الخاوية المتظاهرة بالشموخ الزائف، لتكتشف أننا جيل تعيس لا يسعى إلى حياة سعيدة بقدر سعيه إلى التظاهر بامتلاكها.

كان السؤال الذي جعل ميدو ينهار هو:

- أكنت تتوقع أن أباك هو قاتلك؟

بمجرد أن سألته ذلك وأنا أدخن سيجارتي أسفل العمارة بعيدًا عن مسرح الجريمة وأضع سماعة هاتفي في أذني متظاهرًا بأنني أتحدث فيه حتى لا يظن أحد أنني معتوه يحادث نفسه، فقد ميدو الخمول الذي كان على ملامحه منذ أن رأيت روحه في المرة الأولى، ولم يعد صوته مغلفًا بنبرة اللامبالاة التي يحترفها، بل بدا عليه الانكسار وهو يجيبني:

– أيوه، كنت متوقعها من زمان كمان، بس مش قادر أعترف بده لنفسي. أنا بقالي تمان سنين كل يوم باحلم إن أبويا بيقتلني، بيدفني زي ما دفن أمي.

تمان سنين خايف منه، خايف من سمعة أمي، خايف من إدماني، خايف صباح تفوق وتكتشف إنها تستاهل راجل أنضف مني.

في النهاية الخوف ده كله ما منعنيش من الموت، لكن منعني من الحياة.

- ليه ما قلتليش إنك شاكك فيه؟

- مش عارف. يمكن عشان اتربينا على إن ولاءنا وحبنا لأهلنا واجب.



- حتى لو أذونا؟

- بالذات لو أذونا.

- للدرجة دي كنت بتحب أبوك؟

- لا وإنت الصادق للدرجة دي كنت باكره نفسي.

* * *

فتحت باب مكتب صلاح في القسم، ودخلت أنا وقطز يتبعنا شبح ميدو.

كان رشيد يجلس على الكرسي متململا، يشعر بزهو لا أفهم مصدره، فكيف لمن دفن جثتين في بيته أن يجلس بهذا البرود داخل قسم الشرطة؟!

نظر صلاح إِليَّ قلقًا لكني ابتسمت له، ففهم أننا انتصرنا على هذا النقاش السفاح.

سحبت أنا وقطز كرسيين، وجلست أمام رشيد وقطز خلفه.

أخرجت من جيب سترتي مجموعة صور فوتوغرافية ألقيتها في حِجر رشيد الذي يستفز بروده كل خلية في تكويني.

أرجعت ظهري في مقعدي ووضعت ساقا فوق الأخرى وأنا أشعل سيجارتي، بينما يذوب جليد ثقة رشيد مع كل صورة يقلبها، وقد راح يتأمل تفاصيل عثورنا على جثتي ابنه وزوجته داخل القبرين الأسمنتيين اللذين بناهما لهما.

ألقى صلاح نظرة خاطفة بطرف عينه على الصور من خلف كتف رشيد، فأشرق وجهه ولم يستطع منع نفسه من أن يضحك ضحكة شامتة.

نفثت دخاني ثم قلت للقاتل مقلدا لهجته الريفية:

- إنت قلت مش فيه جثة، مش فيه جريمة قتل، مش فيه اتهام... آدي الجثة وآدي الجريمة وآدي الاتهام.

ألقى بالصور بضيق على المكتب.

راقبت عينيه ترجفان وأنفاسه تضيق ومقلتيه تدوران في محجريهما وهو يعقد أصابعه ويقول:

- الاتنين يستاهلوا. مرتي تخوني مع عيل من دور عيالي ومش عايزني أجز رقبتها؟ مش دكر؟

زفر صلاح وقال لي وهو ينهض عن مكتبه:

- كملوا إنتو.

اتجه إلى شقيقته وأخذها خارج المكتب وأمر عوض أن يبقى في المكتب، ثم أغلق الباب خلفه.

صاح رؤوف:

- اللي بيحصل ده مش قانوني، إنتو محتجزين أبويا ده وبتستجوبوه بدون حضور محامي و...

- أبوك قتل أمك وأخوك! أريته الصور، فنظر إليها ثم إلى أبيه وعلامات الصدمة والتساؤل على وجهه.

هز رشيد رأسه لابنه مؤكدًا ما قلته من دون أن يرفع بصره عن الأرض.

كان رؤوف في صدمة لا يُحسد عليها، فدارت عيناه في محجريهما وتقلب بصره بيني وبين ابيه حتى سحب كرسيًا وجلس بلا استئذان، ثم سأل أباه:

- قتلتها إمتى؟

- من تمان سنين، ليلة ما قلتلكم إنها هربت.

سحب رؤوف صورة جثة أمه في قبرها وراح يدقق في التفاصيل. وضع يده على فمه، ولمحت رعشة أصابت أصابعه وهو يقول بصوت مهزوز:

- الصورة دي من فين؟ دي السجادة اللي فوق سطحنا؟ إنت كنت دافن جثتها جوه المصطبة؟ أنا بقالي تمان سنين باقعد فوق جثة أمي!

- آني عملت ده. عشانكم يا رؤوف عشان أغسل شرفنا ان تعرف بالحكاية دى؟

- شرفنا؟! هو إنت سيبت حد ما قلتلوش إن أمي هربت مع عشيقها؟! فيه حد ما فضحتناش عنده عشان ما يشكش في اختفائها لما قتلتها؟!

- كنت عايزني أعمل إيه يا ابني؟

- تقولهم إنك قتلتها. تعرف الناس إنك غسلت عارنا بدل ما تخلينا رجالة بشنبات ماشيين وشنا في الأرض عشان أمي هربانة مع عيل أصغر مني بخمستاشر سنة!

للحظة لم أستوعب أن هذا ما يأخذه رؤوف على أبيه؛ أنه لم يمش مختالا بجريمة قتله وسط الأنام!



ضحك ميدو ضحكة حزينة ثم قال:

- اللي خلف ما ماتش.

أخرج رؤوف منديلا من جيبه مسح به جبينه، ثم خلع نظارته ودعك عينيه محاولا أن يستوعب ما أدركه للتو، ثم قال:

- وميدو؟ عمل إيه يستحق إن مصيره يبقى نفس مصيرها؟

- ميدو خاننا يا رؤوف.

قتلته عشان هو اللي خطف لؤي؟

- إنت كنت تعرف بالحكاية دي؟

- رد علي يا ابا، إنت قتلت أخويا عشان التمثيلية الخايبة دي؟ ليه يا ابا؟ ما إنت عارف إنه مريض. أنا كنت ها رجع لؤي وهاسددله ديونه بس لما أربيه. قتلت ابنك عشان مدمن يا ابا؟

- قتلته عشان نجس! ميدو يبقى أبو لؤي!

راقبت مقلتي رؤوف تتخبطان في محجريهما يمينا ويسارًا كبندول الساعة، وظل على تلك الوضعية هنيهة حتى تمكن من استيعاب الأمر، وربط الحقائق معا، ثم وضع يده على فمه وشهق شهقة حادة، وفرت الدموع من عينيه، بكى ومعه ميدو الذي اقترب من أخيه وجثا على ركبتيه أمامه قائلا:

- أنا آسف! والله ما كانش قصدي! أنا آسف يا رؤوف!

قال رؤوف لأبيه:



- إيه التفاصيل؟

- تفاصيل إيه يا ابني؟

- كل حاجة. بقالهم أد إيه بيخونوني؟ إنت عرفت إمتى؟

قتلته إزاي؟ عايز أعرف كل حاجة!

حاضر يا ابني هاحكي كل حاجة إلك.

لم يبخل رشيد على رؤوف المنهار بتفصيلة واحدة....

* * *

بعد منتصف ليلة الخميس الباردة، أصيب رشيد بنوبة سعال ورشح شديدة، فاستيقظت صباح عدة مرات على صوته، تناوله مسكنا وتعد له اليانسون الدافئ ثم تعود إلى فراشها مرهقة.

شعر بالذنب تجاه زوجة ابنه التي دعست كرامتها تمسكا بالأصول وعادت للإقامة معهم في البيت على الرغم من طلبها الطلاق من ميدو وحين توسط رشيد بينهما، أخبرته بأنها واثقة من خيانة ميدو لها، وأنها لم تعد تجد مبررا للصبر عليه بعد سنوات من الإدمان والفشل والاستدانة وأخيرًا الخيانة. خرج رشيد من غرفة نومه في الشقة، وصعد إلى السطح مرتديًا ثيابًا صوفية ثقيلة. جلس في الغرفة يقرأ القرآن ويدعو لحفيده الوحيد بالعودة إلى بيته آمنًا، وقد أوصد النافذة وأنزل الستائر الثقيلة حتى لا يتسلل البرد إليه، وظل على تلك الحالة في انتظار أذان الفجر، إلى أن سمع همس يمنى وميدو ... استغرب، ما الذي يدفع يمنى للصعود إلى السطح مع ميدو في تلك الساعة وقد ترك



كلاهما زوجه في الشقة! أطفأ ضوء المصباح الذي يقرأ عليه القرآن حتى لا ينتبها له، وتسلل بخطى بطيئة وألصق أذنيه بالباب ...

سمع يمنى تخبر ميدو بأن لؤي بأمان عند أم أسماء، وأنها تزوره خلسة في غياب أم أسماء لتعطيه أدوية الحساسية على الصدر وترضعه وتتأكد من سلامته. وقد سألت يمنى ميدو إن كان قد أعد ورقة الفدية، واتفقا على تركها غدًا على عتبة باب الشقة، لكن ميدو أبدى بعض التردد وأعلن رغبته في الانسحاب. انزعجت يمنى، وقالت إنه لا رجعة الآن، إذا لم يحصل على المال فسيقتله الديانة، فلا أمان لأمثال طماشة. سألها ميدو لم تساعده باستماتة، فزوجته نفسها طلبت منه الطلاق في أحلك أوقاته،

وأخوه وأبوه تخليا عنه ورفضا حل أزمته! أجابته يمنى بالحقيقة، فأخبرته بأنها تحبه من أعماق قلبها، وما زالت تفكر في تلك الليلة التي عرفت فيها الغرام. انزعج ميدو، لأنهما تعاهدا على عدم ذكر تلك الغلطة ثانية فاستنكرت يمني كلامه يعنى أن تتكتم فذكرها أن كلا منهما متزوج، وكلا منهما أذنب في حق شريكه.

قالت الحالمة الصغيرة إن الحب لا يمكن أن يكون ذنبًا، وإنها قد ضاقت بالكتمان وتود أن تعيش معه ما بقي من عمرها، لأنها معجبة به منذ اللحظة التي أتى فيها مع رؤوف لطلب يدها للزواج.

سألها ماذا عن رؤوف، فأجابته بأنها لمحت له برغبتها في الطلاق.

سألها ماذا عن لؤي، فأجابته بأنها ترددت في إخباره لعامين كاملين خوفًا من رد فعله، لكن الحقيقة هي أن لؤي ابنه هو، وسألته ألم يلحظ الشبه الواضح بينهما؛ الشعر الأصهب المجعد والعينين الواسعتين والأنف القيصري!



صدم ميدو! وأنكر واستنكر!

لكن يمنى أكدت له بحساب الفترة الزمنية بين ليلتهما معًا وتاريخ ميلاد لؤي، وذكرته بأن رؤوف كان مسافرا لمدة شهر إلى سوهاج في ذلك الوقت ليتابع مشروعًا.

ربط ميدو الأمور بعضها ببعض، وطلب من يمنى أن تتكتم على الأمر، وأخبرها بأنه لا يشاركها مشاعرها ولا طموحها، وإذا عرف أهله بالأمر فإنه سينكر، وإن أصرت فالعار سيلاحقها وحدها، ولا شك أن رؤوف وأباه سيقتلانها.

أجابته يمنى بأن رجال هذه العائلة لن يثأروا منها، والدليل أنهم لم يقتلوا أمه الزانية، ثم بصقت على وجهه وتركته وغادرت.

راح ميدو يسبها، ثم أخرج الكوكايين الذي يخبئه أسفل البلاط خلف البرجولة واستنشقه، ثم أخرج هاتفه وطلب من بياضة الساندويتشات، ثم جلس على السور، أبعد ما يكون عن المصطبة التي دفنت فيها أمه منذ ثماني سنوات.

بعد دقائق من استيعاب الصدمة، تمالك رشيد نفسه وخرج من الغرفة ليواجه ابنه الذي تمكن منه المخدر:

- يا واطي! يا نجس!

انتفض ميدو ونزل عن السور حين لمح أباه يخرج من الغرفة، وأدرك أنه سمع حديثه مع يمنى.

صفع رشيد ابنه وجذبه من ياقة قميصه قائلا:



- مرات أخوك؟! مرات أخوك يا وسخ؟!

- أعمل فيك إيه؟!

- ادفني جنبها في المصطبة وخلصني من العيشة دي!

صدم رشيد وترك ياقة ابنه المنتشي وهو يسأله:

- هي مين يا وله؟!

- أمي! ولا إنت قتلت كتير لدرجة إنك مش فاكر؟!

- مين اللي قالك؟

- شفت بعيني. شفتك وإنت بتجرها من الأوضة وبتبني حواليها المصطبة وبتصب عليها الأسمنت! هو أنا بقيت ضريب من قليل يا حاج رشيد يا غاسل عارك!

- أخوك إيه ذنبه؟

- ما كانش قصدي! أنا عمري ما كان قصدي أأذي رؤوف!

- تغفّل أخوك؟! تخليه يكتب ابنك باسمه؟!

- لازم يعرف آني مش هاسيبك تعمل في رؤوف اللي أمك عملته في!

- إنت مش هتنطق بكلمة هتسكت زي ما أنا فضلت تمان سنين ساكت على قتلك لأمي! روح قول لرؤوف، وأنا هاروح أقول للبوليس يهدوا المصطبة دي ويشوفوا إنت مخبي فيها إيه.



- بتهدد أبوك؟

- هاهددك وهابتزك كمان لو ما سددتش الديون اللي عليَّ لطماشة هابلغ عنك.

معاك مهلة لبكرة تكون لميت الفلوس.

فقد رشيد توازنه من هول الصدمة، فاستند إلى طاولة أدوات الزراعة. لفت انتباهه منجل الزراعة بجوار قصرية عنب الثعلب، فوضعه في جيب سترته الصوفية، ثم قال:

- مش فيه داعي نستنى لبكرة. هاديك الفلوس بشرط إنك تغور من حياتي آني وأخوك ليوم الدين!

- هتديني الفلوس دلوقت؟

- عندك في الأوضة جوه. قدامي.

- سبقه ميدو إلى داخل الغرفة. ومن ورائه أخرج رشيد المنجل من جيبه وطعن به رقبة ميدو فنفر الدم وتناثر رذاذه على وجهه وسترته. صدم ميدو، إذ لم يصدق أن أباه طعنه! راح رشيد يسب ميدو بصوت غاضب خنقه البكاء، ويلومه على أنه دفعه إلى قتله، حتى سقط ميدو قتيلا ينزف من عنقه. مسح رشيد الدم عن وجهه ونظارته، ثم خلع سترته التي تلطخت بالدماء، وشرع يكرر تفاصيل الجريمة التي ارتكبها منذ ثماني سنوات.

خرج من الغرفة ليأتي بمواد البناء التي تتراص على السطح، فوجد بياضة يسأله عن ميدو لأنه أحضر له الساندويتشات، فأخبره بأنه سافر إلى الغردقة



واستعجله في الرحيل، ثم تذكر أن يبحث عن هاتف ميدو، فلما وجده أغلقه وحاول أن يهشمه.

وضع الطوب الأحمر بعضه فوق بعض أسفل نافذته حول جثة ميدو التي كورها في وضعية الجنين، وألقى معها هاتفه، ثم صب عليه الأسمنت السائل. ومع بزوغ شمس الصباح كان قد انتهى من بناء القبر ودهانه ورص قصاري الزرع وصور عائلية فوقه كانت متناثرة في الغرفة.

* * *

كان رؤوف يبكي في صمت بلا أنين أو حشرجة، بينما انهار ميدو أرضًا مسترجعا تفاصيل مقتله.

خلع رؤوف نظارته ليمسح دموعه، ثم قال لأبيه:

- ولؤي؟ إنت اللي خنقته؟

- كان نفسي!

وعاد رشيد إلى السرد المفصل مرة أخرى بناء على طلب رؤوف...

* * *

كان رشيد ينوي قتل يمنى، لأنه لم يعد يحتمل أن تتنفس تلك العاهرة تحت سقف بيته! كانت خطته أن يقتلها في أقرب وقت، لكنه تفاجأ بوجود الشرطة في بيته. ولم يكن من المناسب بأي شكل أن يختفي الآن فرد ثالث من آل رشيد.



كان الحل الوحيد لإبعاد الشرطة عن بيته الذي يأوي جثتين، أن يعود لؤي وتنتهي قضية الخطف كليا.

استغل ساعة غاب فيها رؤوف وصباح عن البيت، واقتحم غرفة يمنى قائلا:

- روحي هاتي لؤي من عند أم أسماء.

- إيه؟! بتقول إيه يا ابا الحاج؟! أنا ....

- ميدو قالي إنه عمل التمثيلية دي وخبى الولا عند أم أسماء عشان نسدد ديونه. الحمد لله إن الولا مش في خطر وطلع عند حد معرفة زي أم أسماء.

- ده كل اللي ميدو قاله إلك يا ابا الحاج؟

- كان فيه حاجة تاني المفروض يقولها؟

- لأ مش فيه. طب أكلم رؤوف أعرفه؟

- مش تعرّفيه حاجة الوقتي. آني اللي هاكلمه.

خدعها، ولم يود أن يطلعها على ما يعرفه حتى لا يترك لها مجالا للهرب أو لتدبير حيلة أخرى.

ذهبت يمنى لاستعادة ابنها من أم أسماء التي حممته وألبسته ثوبًا أبيض ناصعًا وعطرته. ثم عادت يمنى فشهد الشارع كله عودة لؤي.

دخلت يمنى الشقة ووجهها مضطرب، ثم وضعت لؤي على السرير بعد أن أرضعته، ثم حاولت الاتصال بميدو في اللحظة التي دخل فيها رشيد ينظر إليها تارة وإلى حفيده تارة أخرى.

- بتتصلي بمين؟

- بأبويا، عايزة أفرحه برجوع لؤي.

- ما تستعجليش، أنا هاتصل عليه الوقتي عشان ياخدك إنت وابنك، ابن الحرام!

فهمت يمنى كل شيء، وعلى الأغلب توقعت أن ميدو اعترف بكل شيء لرشيد.

نزلت على قدمي حميها تقبلهما قائلة:

- سايق عليك النبي يا ابا الحاج، أنا مش....

ركل وجهها ممتعضًا، ثم جذبها من شعرها صارخا:

- سبحان اللي حكمته إني ما أقبضش روحك بإيدي لولا الظروف، عارفة كنت عملت فيك إيه إنت وابنك ده؟

استيقظ لؤي هلعا من صوت صراخ أمه وصياح جده فبكي بشدة وتعالى بكاؤه، فالتفت رشيد نحوه بغضب، كأنه مصدر كل مشكلاته في الحياة!

- ابن الحرام!

نهضت يمنى عن الأرض سريعا، والتقطت ابنها قبل أن يصل رشيد إليه وضمته إلى صدرها وهي تقول:

_ يا حاج، ده حفيدك الوحيد

- حفيدي من الحرام!



- غلطنا. ميدو مش كان في وعيه. كانت وزة شيطان. حصلت مرة ومش اتكررت تاني!

زاد بكاء لؤي فصاح رشيد:

- اكتميه!

ضمته إلى صدرها أكثر، وراحت تهدهده عله يصمت وهي تقول باكية مرتعشة:

- الله وكيلك يا حاج تستر علي!

- كنت سترت على مراتي! كنت سترت على ميدو! إنت هتبقي أغلى عندي من ابني؟! تقصد إيه يا حاج؟ إنت عملت إيه في ميدو؟

لم يتوقف لؤي عن البكاء، فانقض الحاج على يمنى وصفعها صفعتين عنيفتين ثم دفعها بشراسة فارتطمت بمرآة خزانة الملابس وسقطت أرضًا، بينما حاول رشيد أن يجذب منها صغيرها قائلا:

- سكتيه!

ضمته يمنى أكثر وتشبثت به وهي تصرخ في رشيد:

- عملت إيه في ميدو يا حاج؟ عملت إيه في ابنك؟

انهال عليها صفعًا وهو يقول:

- إنت السبب! إنت السبب يا بنت الكلب!



تلقت الصفعات وهي تصرخ، لكنها لم ترخ قبضتيها عن ابنها الذي ضمته إلى صدرها بشدة ضاغطة على رأسه وظهره حتى لا يؤذيه رشيد، إلى أن توقف لؤي عن البكاء تمامًا، وكذلك توقف رشيد عن ضربها بعد أن نزف أنفها وجرح فمها.

راح رشيد يلهث أمامها وهو يراقب دموعها تختلط بدمها بعدما ضاع صوتها من فرط الصراخ، نهض رشيد وكان على وشك الخروج، لكن يمنى استوقفته قائلة بصوت واهن متحشرج:

- مش بيتنفس! الحقني! لؤي مش بيتنفس!

التفت رشيد إليها وألقى نظرة على لؤي، وأدرك أنه اختنق من شدة ضمها له وضغطها على أنفه وفمه حتى منعت وصول الهواء إلى صدره المريض الضعيف فمات في حضنها.

إبتسم رشيد قائلاً:

- لحق أبوه إلى جهنم وبئس المصير! عقبالك!

هكذا خرج من الغرفة وترك يمنى تعانق لؤي وتضرب رأسها في المرآة بعنف من الندم حتى انشرخت المرآة. توقفت يمنى عن إيذاء نفسها، وراحت تهدهد صغيرها الميت، وهي تحت تأثير صدمة إدراكها أن لؤي وميدو ماتا بسببها، وأن الجميع على وشك أن يعرفوا أنها مارست الخطيئة التي تعرف جيدًا أنها تذكرة اجتماعية لرحلة هلاك لا عودة منها.

* * *



نظر رشيد إلى ابنه منتظرًا منه أي تعليق بعدما استجاب لطلبه وسرد له تفاصيل جرائمه.

قال رؤوف لأبيه بعد أن تمالك نفسه ومسح دموعه:

- ليه كل ده؟ عشان واحدة خاينة؟!

- عشان شرفك.

- شرفي أنا المسؤول عنه! إزاي تاخد القرار ده بالنيابة عني؟!

- قرار إيه يا ابني؟

- قرار إنك تقتل ولادي الاثنين!

- لؤي ما كانش ابنك!

- لأ ابني. أنا اللي سميته وشيلته وجريت بيه على المستشفيات في عز الليل وكنت هاتجلط لما اتخطف. كل ده وما أبقاش أبوه؟ وميدو... ميدو ما كانش أخويا، ده كان ابني! أنا اللي ذاكرتله، وأنا اللي جبتله أول موتوسيكل، وأنا اللي اتخانقت عشانه، وأنا اللي جريت بيه على المصحات، وأنا اللي دعيت ربنا ليل نهار عشان يهديه، تقوم قاتله عشان غلط؟!

- عشان لوث شرفنا.

- ملعون أبو شرفي على شرفك! قتلت أمي وفضحتنا في كل حتة، ودلوقتِ قتلت ابني وقتلت أخويا، ومراتي انتحرت، وإنت هتتشنق. كده بقينا شُرفا يا ابا؟! كده أنا هامشي رافع راسي وسط الناس؟!



انهار رؤوف باكيا، إلى درجة أنه خلع نظارته ودفن وجهه بين كفيه وانهمرت دموعه من بين أصابعه.

ظل ميدو يبكي بجواره ويعتذر له، لكن الأوان قد فات!

مد رشيد ذراعه ليربت على كتف رؤوف، لكنه انتفض فور أن لمسه أبوه ونهض عن مقعده قائلا:

- إوعى تكون فاكر نفسك ضحية ولا بطل! لا أنا هاسامحك في الدنيا ولا ربنا هيغفر لك جريمتك في الآخرة!

خرج رؤوف من المكتب وترك أباه تائها وحيدا وكأنه كان ينتظر استحسانًا وتكريما من ابنه على جريمته! فرت منه دمعتان، لا أدري إن كانتا دمعتي حسرة على نفسه أو ندم على فعلته. لا يهم. ما يهمني الآن أنني وضعت نقطة النهاية في سردية هذه الجريمة الدنيئة.

بسبب انتقام أعمى وأسطورة خارقة أُلقيت على عاتق الرجال بأن شرفهم يرتكز حصريا على سمعة نسائهم وملبسهن، قُتل مهندس سلبته المخدرات لبه، وانتحرت شابة طمعت في مغامرة غير شريفة، واختنق رضيع لم ينطق كلماته الأولى، ودمرت حياة زوج محب وأخ مخلص ظن أنه قادر على التخلص من الوحل الذي أغرقته فيه أمه.

يا لها من تتمة تعيسة للهث رشيد وراء حلم النجاح في مدينة! فلقد قايضته المدينة كما قايضت كل الوافدين إليها قبله؛ النجاح مقابل التوحش، وأي توحش توحشه رشيد الذي كانت حياته أكثر مما يستحق لكن أقل مما يتمنى!



بعد ليلة طويلة من إنهاء الأعمال الورقية الخاصة باستجواب رشيد وتفاصيل القضية كلها، أعلن عقلي عجزه التام عن إصدار أي أوامر أخرى لجسدي، وأنه لا مفر من العودة إلى المنزل الآن للنوم.

نهضت عن مكتبي أنا وقطز وارتدينا سترتينا للرحيل، لكني لمحت صلاح يسير في الممر. ناديته وأسرعت خارج المكتب لملاقاته قبل أن يبتعد، فالتفت إلي قائلا:

- الباشا عنده حاجة يقولها؟

تأهب قطز ووقف بجواري استعدادًا لفض أي اشتباك محتمل.

- كنت عايز أقولك الله ينور على الشغل اللي عملته في القضية. كانت فين النباهة دي من زمان؟!

- كانت متحوشة للغاليين يا حبيبي.

- أعتقد يا صلاح لو حطينا غروري على جنب، وغتاتك على الجنب التاني، هنشتغل كويس مع بعض.

- لمونة نضج وبقى حكيم القرية ولا إيه؟

- مش الفكرة، بس أنا كنت مكون عنك صورة وباحكم عليك منها و ....

- وإنت تحكم علي ليه يا ابني؟! هو أنا معايا الشايب؟!

ضحك كالكلب البلدي، لكني تخطيت ثقل ظله ومددت يدي لأصافحه، فرأيت علامات الذهول على وجه قطز.



مد صلاح يده وصافحني بحماس ثم قال:

- على فكرة، إنتو لسه ليكم عندي عزومة.

سأله قطز:

عند آل مؤمن وجحا تاني؟!

- لأ، عند سعد الحرامي، شوية طعمية بالسجق والجبنة إنما إيه، عجب!

- هتدفع يعني ولا زي كل مرة؟

- لا يا سيدي، المرة دي شكلها غير.

ضرب كتفي ممازحًا ثم ابتعد عنا، بينما قال قطز وأنا أغلق سحاب سترتي:

- هو الكلام على إيه يا نوح؟ صلاح هيبقى صاحبنا يعني ولا إيه؟

- مش لدرجة صاحبنا، بس هو ما طلعش بالغباء اللي أنا فاكره، يعني ييجي منه.

- ييجي منه؟!

ضحكت رغما عني وكنت على وشك أن أسخر من غيرة قطز الطفولية التي لا تناسب طول قامته، لكن رنين هاتفي باسم دليلة منعني من ذلك.

- أيوه يا دليلة.

- نوح، الميكانيكي بتاعك سرقني، أنا كنت سايبة أشعة سناني في العربية و...



- الأشعة معايا العسكري لقاها واقعة تحت الكرسي واداهالي بس نسيت أقولك.

- ودي حاجة تتنسي برضو؟!

ما تقلقيش هاجيبهالك معايا، المهم إنت جاهزة للحفلة بكرة؟



١٣

الرابع والعشرون من ديسمبر هو عيد ميلاد قطز. كانت خطتي أن أحتفل معه صباحًا لأن هذا المساء هو موعد حفل دليلة في الأوبرا، لذلك أجبرته على ترك فراشه الحزين وارتداء قميصه الأكثر أناقة لنذهب إلى مطعم البيتزا المفضل لدينا، «Maison Thomas».

بمجرد أن اقتربنا من المطعم قال قطز:

- لا ورحمة أبوك، مش ناقصة حنين وذكريات.

- بقى يا واطي عشان نزلت مرتين مع ست آسيا في المطعم اللي أبويا بيأكلنا فيه من وإحنا في اللفة، خلاص بقى مرتبط معاك بيها هي لوحدها ونسيت كل ذكريات الطفولة؟!

- معلش، فكك النهارده خالص.

- إنت اللي فكك عشان أنا حجزت ودفعت تمن الطفح اللي هنطفحه.

أوقفت السيارة عند الباب قائلا:



- انزل اسألهم عن الترابيزة المحجوزة باسمك لحد ما ألاقي ركنة في المنطقة المنيلة دي.

زفر بعصبية ثم نزل من السيارة ودخل المطعم، فراقبته من النافذة الزجاجية الضخمة المطلة على الشارع.

استقبله النادل عند الباب، فقال له قطز اسم الحجز، فاصطحبه إلى الطاولة التي حجزتها وتركت عليها هديته.

كانت هديته جالسة بتوتر تنظر من النافذة حتى لمحت سيارتي، ثم التفتت خلفها لتجد قطز يقترب منها حتى وقف أمامها مندهشا.

نهضت آسيا بارتباك، وراحت تتكلم بلغة جسد تشي بتوترها وأسفها، ثم قدمت إليه علبة صغيرة، أعتقد أنها ساعة يد.

أسهبت آسيا في الحديث، لكن قطز قاطع كلامها بأن عانقها بشوق.

لمحني من النافذة، فابتسم ممتنا ولوح إليَّ من خلف آسيا من دون أن تنتبه لنا.

هكذا كانت هديتي إلى صديق عمري يوم عيد ميلاده، أهديته شمسيته الحمراء، فلم يعد طفلا تائها على الشط يبحث عن شمسية أهله وسط الأغراب.

* * *

عدت إلى البيت على عجلة لأستعد للحفل. استحممت وارتديت بدلتي السوداء المفضلة، ثم أخذت ملف أشعة دليلة لأضعه على الطاولة بالقرب



من الباب حتى لا أنساه، لكن خنصر قدمي خانتني للمرة المائة بعد المليون وارتطمت بطرف الكرسي، فتعثرت وأسقطت الملف أرضًا وأنا أسب إصبعي والطاولة.

انتهت نوبة غضبي ورحت ألملم محتويات الملف التي تبعثرت، ليلفت نظري أن ما في الملف ليس أشعة للفك أو للأسنان.

من بين عشرات التحاليل والمصطلحات الطبية الدخيلة على معرفتي، لم أفهم سوى كلمة واحدة كانت كفيلة بأن تفسر لي سبب تغير دليلة معي في الأيام الماضية وإصرارها على البقاء بالقرب من بيت عائلتها.

يا لغبائي!!

أظنني كونان مصر وأنا أعجز عن فك لغز هلع زوجتي المستقبلية.

* * *

في طريقي إلى الأوبرا المصرية، كنت أستغل كل إشارة مرور للتقليب في هاتفي والقراءة عن هذا المرض.

الآن فهمت لم كانت دليلة تلعن العزف والحياة بتقلباتها. لأنها ببساطة كالثعلب الذي عجز عن الوصول إلى العنب فقرر ذمه والتظاهر بأنه صاحب قرار الاستغناء عنه تماما.

اللعنة صرت آخذ الحكمة من أم صلاح!

وصلت إلى مبنى الأوبرا وصففت سيارتي، واتصلت بدليلة لأعرف مكانها بالتحديد.



استقبلتني في غرفة تغيير الملابس مع ليلو والسيدة يسرا.

كانت الكلمات عالقة في وسط حلقي مثل لام شمسية لا تنطق، وأنا أراها بثوبها الأسود الدانتيل الأنيق، وعقدها الماسي الرقيق الذي يبرز حسن عنقها الطويلة وكتفيها الناعمتين.

لم أجد ما أقوله سوى مدح حسنها وإلقاء بضع كلمات تشجيعية حتى اقترب موعد بدء الحفل، فقبلتها ليلو وقرأت السيدة يسرا على رأسها القرآن، وانسحبنا من غرفتها.

جلسنا معا في قاعة المسرح الكبير.

كنت شارد الذهن طيلة الحفل، ولا أعتقد أنني لاحظت تفصيلة واحدة فيه. كنت أفكر: هل تعرف السيدة يسرا وليلو شيئًا عما قرأته للتو؟ هل أجمعن على ألا يخبرنني؟ ألا يثقن بي؟

كانت السيدة يسرا تلقي بعض التعليقات على الموسيقى، وتشاركني اسم كل مقطوعة وعازفها الأصلي ومناسبة عزفها، فأهز رأسي مبتسما من دون أن يلتقط عقلي أيا مما ثرثرت به.

لا أدري كم مر من الوقت، ولم أنتبه إلا حين جاءت فقرة دليلة لعزف صولو التشيلو.

توسطت المسرح وسلطت الأضواء الذهبية الدافئة عليها.

نظرت نحونا فألقت السيدة يسرا إليها قبلة في الهواء وكذلك فعلت، فابتسمت لنا ثم أغمضت عينيها وغاصت في عالم فنها وبدأت العزف.



صمت الكون كله كأنه يود أن ينصت لمعزوفتها.

انصهرت دليلة في شغفها الموسيقي حتى هربت منها الدموع. وقتها، سمعت الجماهير تتمتم معجبة بأنها مبدعة، حتى اندمجت مع موسيقاها حد البكاء.

ليتهم يعلمون حقيقة دموعها!

انتهت من العزف ففتحت عينيها ومسحت دموعها، وإذ بتصفيق الجماهير الأرستقراطية يزلزل المسرح، وأتى المايسترو الفرنسي وأمسك بيدها ليرفعها عاليا بفخر، فانحنت محيّية جمهورها وهي تبكي، لكنها تبكي بسعادة.

ومع الدموع المنهمرة بغزارة، كانت دليلة تضحك وترسل قبلاتها إليَّ، وأنا أصفر لها، ووالدتها تمسح دموع الفخر من عينيها.

هكذا كان ختام حفل الأوبرا الفرنسية، بترديد اسم دليلة والترحم على أبيها المايسترو ياسين الجارحي.

* * *

انتظرنا بعد الحفل حتى تنتهي من الحوارات الصحفية والتلفزيونية والصور الفوتوغرافية وتتلقى الثناء من المعجبين، ثم اقتربت منا في صالة الاستقبال ....

كنت قد اشتريت لها طوق وردات ضخمًا، فوضعته حول عنقها السمراء الدقيقة، ثم ناولتها باقة من التوليب الأبيض الذي تحبه.



أخذت مني الزهور وابتسمت لي، ثم عانقتها أمها وكذلك ليلو وبادلتاها كلمات الانبهار والإعجاب، ثم اختتمت السيدة يسرا كلامها قائلة والدموع تهرب من عينيها:

- بابي فخور بيكي أوي، أنا واثقة من ده.

لم تتمالك دليلة نفسها وبكت في حضن أمها، وذرفت النساء الثلاث الدموع، فحاولت تهدئتهن لكنهن استمررن في البكاء إلى أن اكتفين، وقالت ليلو لأمها التي ساحت زينة عينيها ورسمت لها دوائر سوداء كالباندا:

- عاجبك كده يا مامي؟! أهي المسكارا باظت، تعالي أظبطلك الميك أب في التواليت.

استجابت لها السيدة يسرا، ثم اتجهنا إلى الحمام، ولم يبق سواي أنا ودليلة.

أعطيتها مناديلي فمسحت دموعها بابتسامة حزينة، ثم سألتها:

- هما يعرفوا؟

- يعرفوا إيه؟

- يعرفوا اللي في تحاليلك؟

أخذتها جملتي على حين غرة، فأطالت النظر إليَّ في صمت، واغرورقت عيناها بالدموع مجددًا.

همست لها وقد سمعت رعشة في صوتي قهرتني أكثر:

- ليه ما تقوليليش؟ ليه تمري بكل ده من غيري؟

- أنا ما قلتش لحد، ولا حتى لماما وليلو، أنا لسه مش مستوعبة. لو قلت لحد هيبقى كده خلاص، أمر واقع إني...

اختنقت فعجزت عن إكمال حديثها وبكت مجددًا. عانقتها، فألقت برأسها على كتفي وهي تهتز بين ذراعي، فهمست لها:

- أنا معاكي. كل ده هنعديه سوا.

- أنا مش عايزاك تفتكر إني كنت مخبية عليك لحد ما نتجوز وأدبسك ولا ....

- الكلام ده ما ينفعش يتقال يا دليلة.

رفعت رأسها عن كتفي وهي تقول:

- طب مامي وليلو جم. هنتكلم بعدين.

مسحت دموعها وهي ترسم ابتسامة زائفة على وجهها وتقبض على كفي قائلة لوالدتها:

- مش هناكل بقى يا مامي؟

- العشا جاهز في البيت.

- هتأكلينا إيه؟

- البيكاتا اللي بتحبيها، والخرشوف اللي نوح بيحبه، والتشيز كيك اللي ست ليلو مصدعانا بيها، وبعدها بقى فناجين الشاي ولوحة اليوم.

قالت ليلو:



- تاني وتالت لحد ما لوحات العالم تخلص.

لم أستطع مجاراة مسرحية دليلة، والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام كأن نيزكا لم يضرب كياني منذ أن قرأت ملفها!

راقبتها وهي تسأل والدتها بتلك السعادة الزائفة التي يبدو أنها انطلت على الجميع خلال الأيام الماضية وعلى رأسهم أنا، محقق المباحث اللامع !

- لوحة النهارده لمين بقى؟

- برضو لإيليا ريبين، واسمها «الاستعداد للاختبار».

وياله من اختبار!



شكر خاص

إلى كل من ألهمني لإثراء هذا العمل:

الفنان تامر نبيل

م. برافورد وايت

د. بريتني ميكارتي

مصطفى إبراهيم

ياسمين خالد

إسلام أحمد

عبد الله سامي

زاهر طايع

أنس إيهاب

محمد أحمد

كاري ميريل

رايات وودوارد

ويتني لاستر

شارون ميليك

رضا محمد



المؤلفة

ولدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة «ليسيه الحرية» في المعادي، ثم في كلية «الألسن» بجامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدر لها: رواية «تحقيقات نوح الألفي - الجزء الأول: قضية ست الحسن» ٢٠١٨، والرواية القصيرة «ثلاثة عشر» ٢٠٢٠، «ورواية روك آند رول» ٢٠٢٠، ورواية «صديقي السيكوباتي» ٢٠٢١، و«تحقيقات نوح الألفي - الجزء الثاني: قضية لوز مر» ٢٠٢٢، ورواية دليل جدتي لقتل الأوغاد ٢٠٢٣، و«تحقيقات نوح الألفي - الجزء الثالث: قضية عنب الثعلب» ٢٠٢٤.



للتواصل مع المؤلفة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/MirnaElmahdyWriter

Twitter: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads :ميرنا المهدي

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك للتواصل مباشرة مع المؤلفة:






t.me/twinkling4

ما الخيط الذي يربط بين اختفاء رضيع، وجريمة انتحار فظيعة، ولوحة إيفان الرهيب، وروح عالقة تبحث عن النيكوتين؟

كان الضابط نوح الألفي منشغلًا باستعدادات زواجه من دليلة، ولكن رغبة زميله قطز في تناول الكباب عند كبابجي شهير قادتهما إلى التورط في قضية فتحت عليهما أبواب أسئلة لا تنتهي...

ضابطان عاديان كانا سيقفان عاجزَين أمام ملابسات هذه القضية، ولكن نوح الألفي الذي تعرَّض لحادث جعله يُبصر غوامض لا يراها غيره، وزميله قطز المحمدي، ليسا ضابطين عاديين.

ثم ما عنب الثعلب أصلًا؟

قضية جديدة مثيرة في سلسلة «تحقيقات نوح الألفي».





